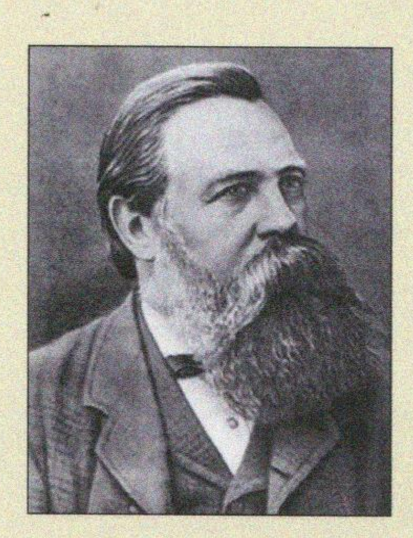
فريدريك إنجلز



الاشتراكية: الطوباوية والعلم

سلسلة دفاتر ماركسية - 2





الاشتراكية:

الطوباوية والعلم



سلسلة دفاتر ماركسية [2]

فريدريك إنجلز

الاشتراكية:
الطوباوية والعلم

دار الفارابي

سلسلة دفاتر ماركسية ـ 2
إشراف: سلامة كيلة

الكتاب: الاشتراكية: الطوباوية والعلم
المؤلف: فريدريك إنجلز
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: شباط 2013
ISBN: 978-9953-71-596-4

مقدمة

حول كتاب إنجلز هذا

صدر هذا الكتاب باللغة العربية مرات عديدة، لكن بعناوين مختلفة ربما خضعت لاجتهاد المترجم أو اعتمدت على العنوان الفرنسي للكتاب، والذي كان قد صدر في أول طبعة له ككتاب سنة 1880، بعد أن كان إنجلز قد نشره على ثلاث حلقات في مجلة «la Revue Socialiste»، خلال ربيع سنة 1880. والعنوان هنا هو من وضع المترجم الفرنسي دون العودة إلى إنجلز. والكتاب أصلاً هو إعادة صياغة للقسم الأخير من كتاب إنجلز «ضد دو هرنغ»، لكن بعد أن أزال كل الإحالات على دوهرنغ ليصاغ كنص متكامل.

وقد صدر بالعربية، أولاً بعنوان «الاشتراكية الوهمية والاشتراكية العلمية» عن منشورات دار مكتبة الحياة في بيروت سنة 1954 (مغفل من اسم المترجم). ثم صدر بعنوان «الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية» عن دار

التقدم في موسكو (ربما في سبعينيات القرن العشرين، وهو من ترجمة الياس شاهين). ومن ثم بعنوان «تطور الاشتراكية من طوباوية إلى علم» عن دار الفارابي في بيروت سنة 1978، وهي طبعة مدققة، وهي الطبعة التي نعتمدها هنا. لكن مع تغيير في عنوان الكتاب، هو عودة إلى عنوانه الأصلي. لقد كان العنوان الأصلي للكتاب كما هو بالإنكليزية، والذي تصدر الطبعة التي صدرت تحت إشراف إنجلز، وبمقدمة مطولة منه، هي الواردة هنا. والعنوان هو:

Frederick Engels

Socialism: Utopian and Scientific

أي الاشتراكية: الطوباوية والعلم.

وربما كان البحث في اختلاف ترجمات العنوان يلقي الضوء على مشكلة فهم الاشتراكية أكثر مما يطرح اجتهاداً في الترجمة ذاتها، وهو الأمر الذي دعاني إلى كتابة هذه المقدمة. إضافة إلى التأكيد على جوهر ما جاء به الكتاب، وبالتالي أهميته. ولقد بدا لي أن توضيح الاختلاف في ترجمات عنوان الكتاب يفضي إلى توضيح

جوهر الفكرة التي قال بها إنجلز، والتي جعلت لهذا الكتاب أهمية فائقة.

لا أريد أن أعلق على تعبير «الاشتراكية الوهمية» الذي يسم الترجمة الأولى، حيث بدا لي أن المترجم تصرف في ترجمة كلمة يوتوبيا لتكون وهماً، فهذا اجتهاد الترجمة، لكن العنوان في كل الأحوال يتقاطع مع عنوان الطبعة الروسية، حيث نجد أن هناك: اشتراكية طوباوية (أو وهمية)، واشتراكية علمية. إذن هناك اشتراكيتان. هل كان يقصد إنجلز ذلك؟ النص لا يشير إلى هذه المسألة ولم يكن في ذهن إنجلز توضيح التمايز بين اشتراكيتين، بل كان يدحض صيغة لاشتراكية يعتقد بأنها وهمية.

أيضاً، هل كان يشير إنجلز إلى تطور الاشتراكية من طوبى إلى علم؟ أي هل الأفكار الاشتراكية الطوباوية قد تطورت لكي تكون علمية؟ ربما هنا يمكن الإشارة إلى تحول الفكرة الاشتراكية من فكرة طوباوية إلى فكرة علمية. هنا جرى تحوّل وليس تطوراً، فالتحوّل هو تغيّر في البنية أما التطور في ارتقاء، وبالتالي ارتقاء مبني على ما سبقه، يتضمن ما سبقه. لكن ما جرى هو نفي لفكرة لمصلحة أخرى. لقد نفيت النظرة الطوباوية لمصلحة نظرة علمية. والكتاب يوضح كيف أصبح تحقيق الاشتراكية أمراً

ممكناً لأنها باتت تنطلق من الواقع، وبالتالي لم تعد طوبى.

إن إنجلز يدحض النظرة الطوباوية للاشتراكية، التي هي في التحليل الأخير ليست اشتراكية، أو أنها في الواقع لا تقود إلى تحقيق الاشتراكية، بل تبدو كشكل من أشكال إعادة إنتاج الرأسمالية، بهذه الصيغة أو تلك. من هنا بدت طوباوية أو وهمية (كما جرت ترجمتها في الترجمة الأولى للكتاب). فهي لا تحقق الاشتراكية بل تعيد إنتاج المجتمع الرأسمالي. وهذه الفكرة هي التي حكمت نقد ماركس وإنجلز لمختلف الاشتراكيات التي كانت رائجة حينما كتبا «البيان الشيوعي» سنة 1848. فقد نقدا الاشتراكية الاقطاعية التي كانت التعبير عن إعادة طرح لرؤية طبقة انتهت. والاشتراكية البورجوازية الصغيرة التي كانت تتمثل في العديد من المدارس التي كانت منتشرة في فرنسا وإنكلترا خصوصاً، والتي يتناولها إنجلز في هذا الكتاب كذلك بمزيد من البحث والتدقيق لتوضيح طابعها الطوباوي. وبالتالي لا اشتراكيتها. هنا إنجلز يميز بين أفكار حول الاشتراكية طوباوية ولا تفضي إلى أن تتحول إلى واقع، وبين ما جاء به ماركس وهو، وكيف باتت الاشتراكية بالتالي ممكنة التحقق، حيث باتت تبنى على

العلم، العلم الماركسي. لهذا اعتبر أن تبلور الجدل المادي هو عنصر مفصلي في أن تصبح الاشتراكية ممكنة التحقق، مثل نشوء الطبقة العاملة. وهو في ذلك يشير إلى الحاضن الطبقي للفكرة من جهة، وإلى «العقل» الذي بات يسمح لها أن تفكر في الطريق الموصلة إلى هدفها، الذي هو الاشتراكية.

في هذا تكمن قيمة الكتاب. فهو هنا يقول أن «ليس من اشتراكية أخرى ممكنة، سوى الاشتراكية التي تستند إلى فعل الطبقة العاملة، وانطلاقاً من رؤية تتأسس على الماركسية، وبالتحديد الجدل المادي فيها. هذا الجدل الذي يمدنا بكل السبل التي تسمح لنا بوعي الواقع علمياً، ولكن كذلك وعي آليات تغييره. وهو الذي يؤسس لإيديولوجيا مطابقة لوعي الطبقة العاملة تجعلها قادرة على خوض النضال الطبقي بجدارة، والوصول إلى السلطة، وبالتالي تحقيق الاشتراكية.

إذن، تحول الفكرة الاشتراكية إلى ممكن متجاوزة كونها طوبى، نتج عن نشوء الطبقة العاملة كطبقة لا تملك سوى قوة عملها، وبالتالي بإمكانها أن تلغي الملكية الخاصة لأن لا شأن لها بها، وبالتالي تفتح الأفق لتأسيس نمط مجتمعي بديل. لكن عبر تحول الماركسية إلى «وعي ذاتي»

لها، وبالتالي تنظّمها في حزب لكي تصبح قوة سياسية فاعلة. هنا جرى تجاوز الفكرة الاشتراكية كفكرة طوباوية، وتحوّلها إلى فكرة علمية، لأنها اكتسبت حاملها الطبقي والوعي الذي يفضي إلى هديه نحو تحقيقها. وبهذا اكتسبت علميتها، لأنها باتت ممكنة التحقق في الواقع الموضوعي.

وبالتالي لم تعد تُطرح الاشتراكية كطوبى، كوهم، بل أصبحت مشروعاً طبقياً تحمله طبقة هي قوة الإنتاج، وهي الكتلة الأكبر في المجتمع، وتمتلك رؤية تؤسس لها طريقاً نحو التغيير، وبناء الاشتراكية. وهنا لا يعني كل ذلك أن «المشروع الاشتراكي» منجز نظرياً ولم يبقَ سوى تطبيقه، وإلا لأشار إنجلز إلى ذلك وليس إلى الجدل المادي. والفارق هنا واضح، حيث أن مادية الجدل تنبع من كونه ينطلق من الواقع المحدَّد في الزمان المحدد: من الآن وهنا، وبالتالي ليس من الممكن بلورة تصور عام شامل لا يلحظ الواقع المتغير، دائم التغير، والمختلف. لهذا أشار إنجلز إلى الجدل المادي الذي يقدّم المنهجية، المنهجية بالأساس، لكي نعي كل واقع، وفي كل زمن. وبالتالي نطلق من الواقع وليس من تصورات مسبقة.

والجدل المادي هنا يسمح، عبر امتلاكه، بأن تتأسس

الإيديولوجيا المطابقة لمصلحة الطبقة العاملة في الواقع المعين وليس على العموم أو بالمجرّد، رغم أهمية التجريد. وبالتالي ليس من قيمة له إذا ما استطاع أن يكون أداة منهجية قادرة، عبر الماركسيين، على أن تؤسس الوعي المطابق للطبقة العاملة في سياق نضالها الطبقي من أجل الوصول إلى الاشتراكية.

حدد إنجلز، هنا، أن الاشتراكية باتت ممكنة، وهنا تكمن علميتها، على ضوء تبلور الجدل المادي وليس كل الأفكار والتصورات التي طرحت من قبل الماركسيين الأوائل: ماركس وإنجلز ولينين، وآخرين كثر. هذه التصورات والأفكار يمكن أن تفيدنا أو لا، ويمكن أن تكون صحيحة أو لا، وأيضاً يمكن أن يكون لها قيمة منهجية أو نظرية أو لا يكون. كما يمكن عبر العلاقة بين الجدل المادي والواقع المحدَّد أن نتلمس كل ذلك فيها. وبالتالي فما هو «مطلق» هو الجدل المادي فقط، أما باقي التراث الماركسي فهو نسبي. بعضه قد أصبح من التاريخ، وبعضه جزئي. بعضه كان صحيحاً وبات من الماضي وبعضه ما زال يمتلك بعض الصحة. بعضه التصق بالمنهجية وبعضه ظل خارجها. وتحديد كل ذلك يفترض دراسة قائمة على الجدل المادي لكل التراث الماركسي.

وهي عملية ضرورية لكل فعل طبقي، وبالتالي لكل حزب ينطلق من الماركسية، لكي لا تسود النظرة الشكلية، أو يستحكم المنطق «اللاهوتي».

إنجلز إذن، يدلنا على الخطوة الأولى على طريق انتصار الاشتراكية.

مقدمة

الطبعة الانكليزية الأولى (1892)

هذا الكراس هو، في الأصل، جزء من كل أكبر. فنحو عام 1875، أعلن الدكتور أ. دوهرينغ، الأستاذ المحاضر في جامعة برلين، فجأة وبصخب كبير، اهتداءه إلى الاشتراكية، وتقدم من الجمهور الألماني ليس بنظرية اشتراكية مبلورة فقط، بل وأيضاً بخطة عملية كاملة لإعادة تنظيم المجتمع. وكما ينبغي انقض على أسلافه، وكان لماركس، على الأخص، شرف تلقي جام غضبه.

وقد جرى ذلك حوالى زمن اندماج كتلتي الحزب الاشتراكي في ألمانيا ـ مجموعة ايزناخ واللاساليين[1] ـ

---

(1) مجموعة ايزناخ، هي الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي في ألمانيا، أسسه ولهلم ليبكنكت (Wilhelm Liebknecht 1826 ـ 1900) بالاشتراك مع أوغست بيبل (August Bebel 1840 ـ 1903) وذلك في ايزناخ 1869. =

واكتسابهما، بسبب ذلك، ليس نمواً هائلاً في القوى فقط، بل وأيضاً، ما هو أكثر من ذلك: القدرة على استخدام كل هذه القوى ضد العدو المشترك. وكان الحزب الاشتراكي في ألمانيا في طريقه إلى أن يصبح قوة بسرعة. ولكن، لكي يصبح قوة، كان الشرط الأول ألّا تتعرض الوحدة المكتسبة حديثاً للخطر. والحال أن الدكتور دوهرينغ أخذ يجمع صراحة حول شخصه شيعة، نواة لحزب منفصل لاحقاً. فكان لا بد من أن نرد القفاز الذي رمي في وجهنا[2]، وأن نخوض الصراع، شئنا ذلك أم أبينا.

ورغم أن المسألة لم تكن ربما فائقة الصعوبة، إلّا أنها

= أما اللاساليون فهم جماعة فرديناند لاسال (Ferdinand Lassalle 1825 ـ 1864) الذي أسس اتحاد العمال الألمان العام عام 1863 وهو الذي أرسى بداية الاتجاه الانتهازي في الحركة العمالية الألمانية: الاشتراكية الوطنية والإصلاحية الاجتماعية.
والاندماج بين الحزبين حصل في مؤتمر غوتا التوحيدي (22 ـ 27 أيار 1875) باسم حزب العمال الاشتراكي الألماني وأقر برنامجاً كان موضوع ملاحظات انتقادية من ماركس عرفت بـ «نقد برنامج غوتا» ولم تحظ بالنشر إلّا في عام 1891.

(2) بمعنى أن نقبل التحدي.

كانت عملاً طويلاً فعلاً. فنحن، معشر الألمان، كما يعلم الجميع، نتمتع بعمق ثقيل بشكل مرعب، جذري بشكل عميق أو عميق بشكل جذري كما يحلو لك أن تسميه. فكلما كان على الواحد منا أن يطرح ما يعتبره مذهباً جديداً، كان عليه أن يبلوره بدءاً في سستام يشكل كل شيء. وكان عليه أن يبرهن أن أولى مبادىء المنطق ومعها قوانين الكون الأساسية لم توجد منذ الأزل إلّا بغرض الافضاء في النهاية إلى هذه النظرية المتوجة المكتشفة حديثاً. والدكتور دوهرينغ كان، من هذا المنحى، على مستوى النبوغ القومي. ولم يكن ذلك بأقل من سستام(3) كامل للفلسفة، ذهني وأخلاقي وطبيعي وتاريخي، سستام كامل **للاقتصاد السياسي والاشتراكية**، وأخيراً **تاريخ نقدي للاقتصاد السياسي** ـ ثلاثة مجلدات ضخمة، من القطع الوسط، مثقلة شكلاً ومضموناً، ثلاثة فيالق من الحجج

---

(3) سستام: هو بناء فلسفي يتمثل بانتظام الأفكار الفلسفية ومختلف الأجزاء حول فكرة رئيسة تشكل أساس المذهب. ويطلق هذا اللفظ على الفلسفات الكلاسيكية التي تجسد فيها جواباً، متوافقاً مع مجمع السستام، عن أية مسألة في الطبيعة والمجتمع وما بعد الطبيعة. والمستمة: تعني المنتظمة بموجب السستام.

معبأة ضد جميع الفلاسفة والاقتصاديين السالفين عامة، وضد ماركس بصورة خاصة ـ أي أنها في الحقيقة محاولة «انقلاب في العلم» كامل ـ ذاك ما كان علي أن أتصدى له. كان عليّ أن أتناول جميع المواضيع الممكنة وعديدها، ابتداءً من مفاهيم الزمان والمكان حتى نظام المعدنين[4]، ومن أزلية المادة والحركة حتى الطبيعة الفانية للأفكار الأخلاقية، ومن الاصطفاء الطبيعي لداروين حتى تربية النشء في مجتمع مقبل. إلّا أن شمولية خصمي المستتمة أتاحت لي الفرصة، أن أطور، في معارضته وبشكل أكثر ترابطاً من ذي قبل، تلك الآراء التي كنا نحملها، ماركس وأنا، حول هذه المجموعة الكبرى من المواضيع. ذلك كان السبب الرئيسي الذي دفعني إلى القيام بهذه المهمة الكأداء أصلاً.

وقد صدر ردي، بادىء الأمر، في سلسلة مقالات في «فورفيرتس»[5] الصادرة في لايبزغ، وهي الصحيفة الرئيسية

---

(4) نظام المعدنين: نظام نقدي يقوم بموجبه الذهب والفضة بوظائف النقد في آن واحد.

(5) Vorwarts ـ «إلى الأمام»، صدر بحث إنجلز فيها من 3 كانون الثاني 1877 حتى 7 تموز 1878.

للحزب الاشتراكي، ومن بعدها صدر في كتاب: «الهر أوجين دوهرينغ يقلب العلم». صدرت منه طبعة ثانية في زوريخ عام 1886.

وبطلب من صديقي، بول لافارغ[6]، ممثل مدينة ليل، حالياً، في مجلس النواب الفرنسي، أعددت ثلاثة فصول من هذا الكتاب لتكون كراساً، نقله [إلى الفرنسية] ونشره عام 1880 تحت عنوان «الاشتراكية العلمية والاشتراكية الطوباوية». ومن هذا النص الفرنسي صدرت طبعتان بالبولونية والإسبانية. وفي عام 1883، أصدر أصدقاؤنا الألمان الكراس باللغة الأصلية. ومنذ ذلك الحين ظهرت ترجمات على أساس النص الألماني في الإيطالية والروسية والدانماركية والهولندية والرومانية بحيث أن هذا الكراس، بطبعته الانكليزية الحالية هو الآن قيد التداول في لغات عشر. ولا أعرف أي مؤلف اشتراكي آخر، ولا حتى «بياننا الشيوعي» لعام 1848، أو «رأس المال» لماركس،

---

(6) بول لافارغ Paul Lafargue (1842 ـ 1911) عضو المجلس العام للأممية، اشترك في إنشاء فروع الأممية في فرنسا واسبانيا والبرتغال، وأحد مؤسسي حزب العمال في فرنسا، تلميذ ماركس وإنجلز ورفيقهما في النضال. زوج لورا ابنة ماركس.

ترجم بهذه الوفرة. في ألمانيا صدرت منه أربع طبعات تعد، مجتمعة، 20,000 نسخة.

أما الملحق «المارك»[7] فقد كتب بقصد نشر بعض المعلومات الأولية في صفوف الحزب الاشتراكي الألماني عن تاريخ ملكية الأراضي وتطورها في ألمانيا. وقد بدت ضرورة ذلك خاصة في الوقت الذي كان فيه نفوذ حزب شغيلة المدن هذا في طريقه إلى الاكتمال وحيث كانت المهمة كسب العمال الزراعيين والفلاحين. وقد ضم هذا الملحق إلى النص المترجم لأن الأشكال الأولية لتملك الأراضي المشتركة بين جميع القبائل الجرمانية، علاوة على تاريخ تفككها معروفة في انكلترا بدرجة تتدنى حتى على درجة معرفتها في ألمانيا. وقد تركت النص بصيغته الأصلية دون التلميح إلى الفرضية التي طرحها أخيراً مكسيم كوفاليفسكي[8] والقائلة إن اقتسام الأراضي

---

(7) المارك Mark، المشاعة الجرمانية القديمة، تحت هذا العنوان أعطى إنجلز لمحة موجزة من تاريخ الفلاحين الألمان، صدر ملحقاً للطبعة الألمانية الأولى من هذا الكراس.

(8) يشير إنجلز إلى كتاب كوفاليفسكي Kovalevsky بعنوان «الوحة أصول العائلة والملكية وتطورهما»، الصادر في ستوكهولم عام 1890، وكتابه الآخر «الحق البدائي، العشيرة»، الطبعة الأولى عام 1886.

الصالحة للزراعة والمروج بين أفراد المارك قد سبقته زراعتها بشكل مشترك من قبل المشاعة العائلية البطريركية الواسعة التي تشمل بضعة أجيال (مثالاً على ذلك جماعة زادروغا من سلافيي الجنوب التي ما تزال موجودة حتى الآن). وفيما بعد، عندما تضخم عدد أعضاء المشاعة بحيث صعبت الإدارة مشتركة، جرى تقسيم الأراضي. إن كوفاليفسكي محق تماماً، على الأرجح، إلّا أن المسألة ما تزال قيد البحث.

إن المصطلحات الاقتصادية المستعملة في هذا الكتاب تتطابق، بقدر ما هي جديدة، مع تلك المستعملة في الطبعة الإنكليزية لكتاب «رأس المال» لماركس. ونحن نسمي **«الإنتاج البضاعي» تلك المرحلة الاقتصادية التي تنتج فيها المنتجات ليس لاستعمال المنتجين وحسب، بل وأيضاً بقصد التبادل، أي بوصفها سلعاً وليس قيماً** استعمالية. وتمتد هذه المرحلة من بدايات الإنتاج الأولي من أجل التبادل حتى يومنا هذا، ولا تبلغ ذُروتها إلّا في ظل الإنتاج الرأسمالي، أي في ظل الظروف التي يشغِّل فيها الرأسمالي، مالك وسائل الإنتاج، عمالاً بالأجرة، أي أناساً محرومين من أية وسيلة إنتاج باستثناء قوة

عملهم، ويضع في جيبه ما يفيض عن التكاليف من ثمن مبيع المنتجات. ونقسم تاريخ الإنتاج الصناعي، منذ القرون الوسطى، إلى مراحل ثلاث: (1) الحرفية، معلمو حرفة صغار يعاونهم عدد صغير من الصناع والمتدربين بحيث ينتج كل شغيل السلعة بكاملها. (2) المانيفاتورة حيث يتمركز عمال أكثر عدداً في مؤسسة كبيرة، وينتجون السلعة كاملة وفق مبدأ تقسيم العمل، بمعنى أن كل عامل يتولى فقط عملية جزئية بشكل لا يكتمل معه المنتوج إلّا بعد أن يكون قد مرّ على التوالي بين أيدي الجميع. (3) الصناعة الحديثة، حيث تنتج المنتوج آلات تسيرها الطاقة، وحيث يقتصر عمل العامل على مراقبة عمليات الوسيط الآلي وتصحيحها.

وإني أعرف تمام المعرفة أن مضمون هذا العمل سوف يلقى اعتراض قسم كبير من الجمهور الانكليزي. إلّا أننا لو أولينا، نحن القاريين، أدنى اهتمام لتحكمات[9] «الاحترامية» البريطانية لكنا في وضع أسوأ مما نحن عليه

---

(9) تحكمات ج تحكمة أو الحكم المسبق، بإزاء Préjudice.

اليوم. إن هذا الكتاب يدافع عما نسميه «المادية التاريخية» وكلمة مادية تخدش آذان الأغلبية الساحقة من القراء الإنكليز. «اللاأدرية»[10] قد يسمح بها، أما المادية فمرفوضة قطعاً.

هذا في حين أن مهد المادية الحديثة برمتها، منذ القرن السابع عشر فصاعداً، هو انكلترا.

«المادية هي الابنة الطبيعية لبريطانيا العظمى. فقد سبق للسكولائي البريطاني دانس سكوت[11] أن تساءل «ما إذا كان يستحيل على المادة أن تفكر؟» وفي سبيل تحقيق تلك المعجزة التجأ إلى قدرة الله الكلية، أي إنه أجبر اللاهوت نفسه على التبشير بالمادية. وكان، فضلاً عن ذلك اسمياً.

---

(10) اللاأدرية بإزاء Agnosticism مذهب فلسفي يزعم أن معرفة العالم كما هو في الواقع مستحيلة على العقل البشري المحدود؛ وأن المعرفة المطابقة لا تتعدى معرفة الإحساسات، بالنسبة لبعض ممثلي المذهب، أو معرفة الظاهرات (= أي الأشياء الخارجية كما تبدو ضمن قوالبنا الحسية والفكرية القبلية) بالنسبة لبعضهم الآخر. وفيما عدا ذلك، ينبغي الركون إلى التصديق أو إلى علم الأخلاق. أنظر لاحقاً أيضاً.

(11) السكولائي أو عالم الكلام دانس سكوت Duns Scotus فيلسوف اسمي من القرون الوسطى (حوالى 1265 ـ 1308).

والإسمية[12]، أول تعبير للمادية، هي عنصر رئيس عند الماديين الإنكليز.

«أما الأب الحقيقي للمادية الانكليزية فهو بيكون[13]. والفلسفة الطبيعية، عنده، هي الفلسفة الوحيدة الحقيقية، والفيزياء القائمة على التجربة الحسية تشكل الجزء الرئيس في الفلسفة الطبيعية. وغالباً ما يرجع انكساغوراس[14] وجزئياته المتماثلة[15]، وديمقريطس وذراته. والحواس، في رأيه، لا تخطىء وهي مصدر كل معرفة. والعلم برمته يقوم على التجربة، ويتقوم بإخضاع المعطيات الحسية إلى المنهج العقلاني في البحث. الاستقراء والتحليل والمقارنة

---

(12) الإسمية Nominalism، مذهب فلسفي يرى أن الأشياء الجزئية وحدها هي التي توجد حقاً، أما الكليات فليس لها وجود حقيقي وليست سوى أسماء.

(13) هو فرنسيس بيكون F. Bacon (1561 ـ 1626).

(14) انكساغوراس Anaxagoras (حوالى 500 ـ 28ق .م) فيلسوف يوناني مادي غير متسق. إيديولوجي ديموقراطية العبودية.

(15) الجزئيات المتماثلة Homoiomeriae، وهي، في مذهب انكساغوراس، العناصر الأولية للمادة القابلة للتجزئة إلى ما لا نهاية. والقوة التي تجدد وحدتها وانقسامها هي النوس (أو العقل) وهي مادة أكثر لطافة وخفة.

والملاحظة والتجريب، تلك هي الأشكال الأساسية لمثل هذا المنهج العقلاني؛ والحركة هي الخاصية الأولى والأكثر أهمية بين الخصائص الملازمة للمادة، لا بما هي حركة ميكانيكية ورياضية وحسب، بل وأساساً بما هي اندفاع للمادة، وروح حيوية، وتوتر ـ أو وجد[16]، حسب تعبير يعقوب بوهمه[17].

«والمادية عند بيكون، مبدعها الأول، ما تزال تنطوي،

---

(16) الوجد = وضعناه بإزاء Qual. ويعني في الأصل الألماني عذاباً أو ألماً يدفع إلى عمل ما. وعن استعمال هذا اللفظ، يقول إنجلز، إنه تلاعب فلسفي بالألفاظ تضفي عليه صوفية يعقوب بوهمه بعضاً من معنى الكلمة اللاتينية Qualitas (= خاصية أو حال بالتعبير الصوفي)، وتعني أيضاً المبدأ النشط الناجم عن الشيء أو العلاقة أو الشخص، والذي يحدد بدوره تطوره العفوي، خلافاً للألم الذي قد يصيبه من الخارج.

أما عند الصوفيين الإسلاميين فالوجد هو «ما يصادف القلب من فزع أو غم، أو هو لهيب ينشأ في الأسرار ويسنح عن الشوق فتضطرب الجوارح طرباً أو حزناً عند ذلك الوارد». وواضح أن هذا المعنى هو، أقرب ما يكون إلى ما أشار إليه إنجلز، إذ إن الوجد هو حال من الأحوال الصوفية.

(17) يعقوب بوهمه Jacob Bohme (1575 ـ 1624) حرفي الماني وفيلسوف صوفي.

بشكل ساذج، على بذور تطور متعدد الجوانب. فمن جهة تبتسم المادة للإنسان، بكامل كيانه، بتألقها الشعري المحسوس، ومن جهة أخرى يعج المذهب المصوغ، على غرار الأقوال المأثورة بلا ـ اتساقات مستوردة من اللاهوت.

«وتغدو المادية في تطورها اللاحق أحادية الجانب. وهوبس[18] هو الذي يستتم المادية البيكونية. فتفقد المعرفة القائمة على الحواس تألقها الشعري، وتتحول إلى تجربة الرياضي المجردة. وتتوج الهندسة ملكة على العلوم. وتغدو المادية نَفوراً[19]. إذ حتى تتغلب المادية على الروحانية النفور وغير المتجسدة، في ميدانها الخاص، كان عليها أن تتطهر من جسدها الخاص وأن تتنسك. فتتحول من كائن حسي إلى كائن عقلي. لكنها في الوقت نفسه، تطور حتى النهاية الاتساق المنطقي ميزة العقل.

«ويحاجّ هوبس، متمماً لبيكون، كما يلي: إذا كانت الحواس هي مصدر المعرفة البشرية بأسرها، فإن مفاهيمنا

---

(18) Hobbes (1588 ـ 1679) فيلسوف بريطاني مادي ميكانيكي.

(19) نفور بإزاء Misanthrope، أي تنفر من الناس.

وأفكارنا ليست سوى أشباح للعالم الواقعي انتزعت أشكالها الحسية. وجل ما تستطيع الفلسفة هو أن تعطي أسماء لتلك الأشباح. ويمكن أن ينطبق اسم واحد على بضعة أشباح. ويمكن حتى أن يكون هناك أسماء لأسماء. وسينطوي على تناقض أن نؤكد من جهة، أن كل الأفكار تصدر عن الإحساس ومن جهة أخرى، أن الكلمة هي أكثر من كلمة، وأنه إلى جانب كائنات معروفة بفضل حواسنا، كائنات فردية جميعها، يوجد أيضاً كائنات ذات طبيعة عامة، غير فردية. إن جوهراً لا ـ جسمياً هو خلف منطقي بقدر ما هو خلف الجسم اللاجسمي. الجسم والكائن والجوهر ألفاظ مختلفة لواقع واحد. ومن المحال فصل الفكر عن مادة تفكر. هذه المادة هي الحامل لجميع التغيرات الحاصلة في العالم. وكلمة لامتناه لا معنى لها ما لم تعبر عن قدرة عقلنا على الجمع بلا نهاية. ولأن مادية الأشياء وحدها بإمكانها أن تكون موضوع الإدراك الحسي والمعرفة فإننا لا نعرف شيئاً عن وجود الله. وحده وجودي الذاتي هو يقيني. وكل انفعال إنساني إنما هو حركة ميكانيكية تبدأ أو تنتهي. وأغراض النزوة هي ما نسميه الخير. والإنسان يخضع للقوانين نفسها التي تخضع لها الطبيعة. والقوة والحرية متماثلتان.

«لقد سستم هوبس بيكون ولكن دون أن يقيم الدليل على مبدأ بيكون الأساسي الذي يعتبر أن أصل المعرفة البشرية بأسرها هو في العالم الحسي. ولوك هو الذي أقام هذا الدليل في كتابه: «محاولة في الفهم البشري»[20].

«وكما نسف هوبس تحكمات التأليه الديني[21] للمادية البيكونية، فإن كولينز[22]، ودودويل[33] وكوورد[24] وهارتلي[25] وبريستلي[26]، الخ.. أسقطوا آخر الحواجز اللاهوتية التي كانت ما تزال عالقة بحسية لوك. وعلى

---

(20) لوك Locke (1632 ـ 1704)، هو الفيلسوف الإنكليزي وصاحب المذهب التجريبي الثنائي الذي رفض المذهب الديكارتي في الأفكار الفطرية. وقد برر في كتاباته السياسية الثورة البورجوازية المتحالفة مع الأريستقراطية.

(21) التأليه الديني Theism مذهب يقر بوجود إله شخصي فوق طبيعي، خالق للكون ومدبر له.

(22) كولينز، انطوني Collins (1676 ـ 1729) فيلسوف مادي إنكليزي.

(23) دودويل، هنري Dodwell (+ 1784) فيلسوف مادي انكليزي.

(24) كوورد، وليام Coward (1656 ـ 1725) طبيب وفيلسوف مادي إنكليزي.

(25) هارتلي، ديفيد Hartley (1705 ـ 1757) طبيب إنكليزي وفيلسوف مادي.

(26) بريستلي، جوزف Priestley (1733 ـ 1804) هو الكيميائي الإنكليزي والفيلسوف المادي المعروف.

الأقل، بالنسبة للماديين العمليين، ليس التأليه الطبيعي[27] سوى وسيلة مريحة ومتوانية للتخلص من الدين»[28].

ذاك ما قاله ماركس بصدد المصدر البريطاني للمادية الحديثة. فإذا لم يكن إنكليز اليوم مفتونين بشكل خاص باعترافه هذا بمآثر أسلافهم، فبئس ما يبتغون. إذ إنه من الثابت، رغم ذلك، أن بيكون وهوبس ولوك هم آباء تلك المدرسة الساطعة من الماديين الفرنسيين التي، برغم الانتصارات البرية والبحرية التي حققها الإنكليز والألمان على الفرنسيين، قد جعلت من القرن الثامن عشر قرناً فرنسياً بالدرجة الأولى، حتى من قبل تتويجه بالثورة الفرنسية التي ما زلنا نحن الأجانب في إنكلترا كما في ألمانيا نسعى إلى أقلمة نتائجها.

وليس ثمة من مجال للنكران. فالمثقف الأجنبي الذي كان يتخذ من إنكلترا مقراً له، في أواسط هذا القرن، كان

---

(27) التأليه الطبيعي Déisme، مذهب فلسفي يقر بوجود إله مسبب أول للكون. لكنه يعتبر أن الله لا يتدخل في نواميس الطبيعة والمجتمع بعكس التأليه الديني. يسمّي الغزالي أتباع هذا المذهب «الطبيعيين» ويكفرهم.

(28) نقل إنجلز هذا المقطع برمته من «العائلة المقدسة» إلى الإنكليزية مع بعض التصرف والنص العربي مطابق لصياغة إنجلز الإنكليزية.

يذهله شيء ما، شيء لا يقبل التأويل، وهو حماقة الطبقة الإنكليزية المتوسطة «المحترمة» وتزمتها الديني.

لقد كنا جميعاً، في ذلك الوقت، ماديين، أو على الأقل، مفكرين أحراراً متقدمين جداً، وكان لا يمكننا أن نتصور أن جميع الناس المتعلمين تقريباً في إنكلترا يصدقون شتى أنواع المعجزات المستحيلة، وأنه حتى الجيولوجيين من أمثال بكلاند[29] ومانتل[30]، قد شوهوا معطيات علمهم لئلا تناقض بشكل فاضح أساطير سفر التكوين؛ لم يكن بإمكاننا أن نتصور أنه كان ينبغي الذهاب إلى غير المتعلمين، إلى «الدهماء القذرة»[31] كما

---

(29) هو William Buckland (1784 ـ 1856) جيولوجي إنكليزي اشتهر بأعماله على آثار الحفريات، وحاول جهده إثبات مقولات سفر التكوين بمعطيات العلم في كتابه (الجيولوجيا وعلم المعادن في علاقتهما باللاهوت الطبيعي).

(30) هو G.A. Mantell (1790 ـ 1818) جيولوجي إنكليزي وعالم أحاثي اشتهر باكتشافه بعض أشكال الحياة القديمة. حاول أن يوفق بين معطيات علمه وروايات التوراة.

(31) بإزاء Great unwashed أي كبار غير المغتسلين، حيث كانت النظافة عملاً مكلفاً لا تستطيع الطبقة العاملة تأمينه. يشير بول لافارغ إلى أن جمهوريي 1848 كانوا ينظرون نظرة الازدراء نفسها إلى الاشتراكيين ويقولون عنهم إنهم في حرب مع الصابون.

كانوا يسمونهم، إلى العمال، وخاصة إلى الاشتراكيين الأوينيين[32]، من أجل العثور على أناس يجرؤون على استعمال قواهم العقلية في المسائل الدينية.

بيد أن انكلترا «تمدنت» منذ ذلك الحين. فمعرض 1851 دق ناقوس نعي عزلتها الجزيرية. إذ أخذت إنكلترا تتدول تدريجياً، مأكلاً ومشرباً وعادات وأفكاراً، إلى درجة أني بدأت أتمنى أن تأخذ بعض العادات والتقاليد الإنكليزية طريقها إلى القارة، على غرار ما فعلته في إنكلترا عادات قارية أخرى. فمن المؤكد أن إدخال زيت المائدة (الذي كان معروفاً فقط لدى الفئة الأريستقراطية قبل العام 1851) وترويجه قد رافقه ترويج مشؤوم للتشكك القاري في المسائل الدينية. وكان أن اللاأدرية التي لم تكن لتعامل بعد «كما ينبغي» مثل كنيسة انكلترا، قد وضعت، فيما يخص الاحترامية، في مصاف المعمدانية تقريباً وفوق مصاف جيش الخلاص بلا جدال.

إلا أنني أعتقد أنه، في مثل هذه الظروف، سيكون عزاء للكثيرين ممن يتباكون بصدق لتقدم الجحود ويلعنونه،

---

(32) نسبة إلى أوين Robert Owen (1771 ـ 1858) الاشتراكي الطوباوي الإنكليزي الشهير، (أنظر فيما بعد).

أن يعلموا أن تلك «الأفكار الحديثة» ليست ذات أصل أجنبي وليست من «صنع ألمانيا»، شأن الكثير من حاجيات الاستعمال اليومي، بل إنها بلا ريب ذات أصل إنكليزي قديم، وأن قدامى البريطانيين الذين وضعوها قبل 200 سنة قد ذهبوا شوطاً أبعد بكثير مما يجرؤ خلفاؤهم اليوم على المغامرة به.

وبالفعل ما هي اللاأدرية، إن لم تكن مادية «مخزية»، حسب التعبير اللانكشري[33]؟. **إن تصور اللاأدرية للطبيعة هو مادي برمته، فالعالم الطبيعي بأسره محكوم بقوانين ويستبعد أي تدخل خارجي قطعاً، غير أن اللاأدري يضيف: ولكننا لا نملك وسيلة لا لتأكيد وجود كائن ما أسمى خارج الكون المعروف ولا لنفيه.** إن هذا كاد يكون صالحاً عندما رد لابلاس[34] على سؤال نابليون عن

---

(33) نسبة إلى مقاطعة لانكشاير البريطانية. ومخزية بازاء Shemefaced ومعناها الحرفي وجه الخزي.

(34) لابلاس Pierre-Simon (1749 ـ 1827) هو الفلكي والرياضي والفيزيائي الفرنسي الشهير. كان أحد مؤسسي الفيزياء الرياضية واشتهر بأعماله لتفسير اضطرابات حركات القمر والأجرام السماوية الأخرى وحل معضلة التجاذب النيوتني والثبات الكوني عن طريق تكافؤ حركات الجذب والطرد ودون الحاجة إلى فرضيات أخرى=

سبب عدم ورود ذكر الخالق في كتابه الفلكي الكبير «الميكانيك السماوي»، إذ رد باعتزاز بقوله: «لم أكن بحاجة إلى هذه الفرضية». أما اليوم، ومع تصورنا التطوري للكون، فلم يبق إطلاقاً ثمة مكان لخالق أو مشرع، كما أن الحديث عن كائن أسمى يقف خارج العالم القائم يتضمن تناقضاً في التعبير، ويبدو لي، فوق ذلك، إهانة لا مبرر لها لمشاعر المتدينين.

ويسلم صاحبنا اللاأدري، أيضاً، **بأن كل معرفتنا ترتكز على معطيات تمدنا بها الحواس**. إلّا أنه يضيف، من أين لنا أن نعلم ما إذا كانت حواسنا تعطينا تمثلات صحيحة عن المواضيع التي ندركها بواسطتها؟ ويتابع فيخبرنا أنه كلما تحدث عن المواضيع أو خواصها فإنه يقصد، في الحقيقة، ليس تلك المواضيع والخواص التي لا يمكن أن نعرف عنها شيئاً يقيناً، بل فقط الانطباعات التي أحدثتها في حواسه. هذا ضرب من التعليل يبدو من الصعب، بلا شك، دحضه بالحجاج وحده. إنما قبل الحجاج كان

= علمية كافتراض مادة الأثير، أو غير علمية. وقد أسهم كتابه «عرض سستام العالم» الذي استبعد فيه كل تفسير بالعلل الغائية، في اعتبار لابلاس نبي اللا ـ إيمان الديني.

الفعل Im Anfang war die Tat[35]. والفعل البشري قد حل الصعوبة قبل أن يكتشفها التعبقر بكثير. إن الدليل على وجود البودينغ[36] هو أننا نأكله. وما إن نستخدم تلك المواضيع لاستعمالنا الشخصي حسب الخواص التي ندركها فيها، حتى نمتحن صحة إدراكاتنا الحسية أو خطأها امتحاناً لا يخطىء. فإذا كانت هذه الإدراكات خاطئة فإن حكمنا، حول إمكانية استعمالنا الشيء الذي أوحت به، لا بد وأن يكون خاطئاً هو الآخر، ولا بد وأن تفشل محاولتنا. لكننا إذا نجحنا في بلوغ هدفنا ولاحظنا أن الشيء يتفق وفكرتنا عنه ويستجيب للغرض الذي توخيناه منه، فإن ذلك يعتبر دليلاً ايجابياً على أن إدراكاتنا للشيء وخواصه، ضمن هذه الحدود، متفقة مع الواقع الموجود خارجاً عنا. ومتى وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام الفشل فإننا لن نحتاج عموماً إلى وقت طويل لنتبين السبب الذي جعلنا نفشل، وسنجد أن الإدراك الذي تصرفنا بموجبه كان إما غير كامل وسطحياً، وإما مرتبطاً بنتائج إدراكات أخرى ـ بشكل لا يبرره الواقع ـ وهذا ما نسميه بالقياس الفاسد. وما دمنا نحرص على تدريب

(35) أي «في البدء كان الفعل» قول لغوته في كتابه فاوست.

(36) فطيرة إنكليزية تصنع من الدقيق أو الأرز واللبن والبيض والفاكهة.

حواسنا واستخدامها بشكل صحيح ونحرص على تدريب حواسنا واستخدامها بشكل صحيح ونحصر سلوكنا داخل الحدود التي ترسمها إدراكاتنا المكتسبة والمستعملة بشكل صحيح، سنجد أن نتيجة تصرفاتنا تثبت تطابق إدراكاتنا مع الطبيعة الموضوعية للأشياء المدركة. ولم يوجد حتى الآن مثل واحد قادنا إلى الاستنتاج بأن إدراكاتنا الحسية المسيطر عليها علمياً تولد في أذهاننا أفكاراً عن العالم الخارجي هي من حيث طبيعتها بالذات غير مطابقة للحقيقة، أو أن هناك تنافراً لازماً بين العالم الخارجي وبين إدراكاتنا الحسية عنه.

غير أن اللاأدري، الكانطي الجديد[37] يطل هنا ليقول: بإمكاننا بالتأكيد أن ندرك بشكل صحيح خواص شيء ما، لكن ليس بإمكاننا بأي عملية حسية أو ذهنية أن نستوعب الشيء في ذاته، «فالشيء في ذاته»[38] هذا هو ما يتعدى

---

(37) الكانطي الجديد، لقب تابع كانط من الفلاسفة الذين طوروا فلسفة كانط باتجاه مثالي، أي بالاستغناء عن فرضية «الشيء في ذاته» الذي كان ما يزال يشكل الإقرار بوجوده أهم عناصر المادية عند كانط.

(38) «الشيء في ذاته» يضعه كانط في أساس الظاهرة وخارج الزمان والمكان اللذين يتحولان إلى حدسين محضين أوليين. ويفلت «الشيء في ذاته» بالتالي من المعرفة المطابقة.

معرفتنا. وعلى ذلك قد رد هيغل منذ زمن طويل: إذا كنت تعرف جميع خواص شيء ما فأنت تعرف الشيء ذاته ولا يبقى سوى واقعة أن الشيء المذكور موجود خارجاً عنا، وحالما تفيدك حواسك بهذه الواقعة تكون قد استوعبت البقية الباقية من الشيء في ذاته مجهول كانط الشهير Ding an sich. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن معرفتنا بالمواضيع الطبيعية كانت في زمن كانط جزئية إلى درجة أنه كان بإمكانه أن يتوهم «شيئاً في ذاته» خفياً قائماً ما وراء القليل الذي كنا نعرفه عن كل واحد منها. لكن تلك الأشياء التي لا تستوعب قد استوعبت وحللت الواحدة تلو الأخرى، وأكثر من ذلك، قد أعيد إنتاجها عن طريق التقدم العلمي الجبار: ما يمكننا إنتاجه لا يمكننا بالتأكيد اعتباره لا يعرف. وهكذا كانت المواد العضوية بالنسبة إلى كيمياء النصف الأول من قرننا أشياء خفية، أما اليوم فإننا نتعلم صنعها الواحدة تلو الأخرى من عناصرها الكيميائية وبدون الاستعانة بعملية عضوية. ويعلن الكيميائيون المحدثون: حالما يعرف التركيب الكيميائي لأي جسم كان يمكن عندها بناؤه من عناصره. ونحن ما زلنا بعيدين عن معرفة تكوين المواد العضوية الأرقى، المعروفة بالأجسام الزلالية، غير أنه ليس ثمة ما يمنع من بلوغ تلك المعرفة

حتى ولو بعد قرون والتوصل مسلحين بها إلى إنتاج زلاليات اصطناعية. فإذا ما بلغنا ذلك المستوى، نكون في الوقت نفسه قد أنتجنا الحياة العضوية، لأن الحياة من شكلها الأدنى إلى شكلها الأعلى ليست سوى النمط الطبيعي لوجود الأجسام الزلالية.

إلّا أن صاحبنا اللاأدري ما إن يبدي تلك التحفظات الذهنية الشكلية حتى يتكلم ويتصرف كأعرق الماديين، كما هو في قرارة نفسه. ولعله يقول: لا يمكن حسب علمنا استحداث المادة والحركة، أو كما يقال اليوم الطاقة، ولا يمكن تدميرهما. ولكن ليس لدينا أي اثبات على أنهما لم تخلقا في وقت من الأوقات. بيد أنك إذا ما حاولت استخدام هذا الإقرار ضده في حالة ما خاصة، فإنه سيسارع إلى رميك خارجاً[39]. وإذا ما سلم بإمكان الروحانية في مجال التجريد، فإنه يرفض ذلك في مجال الملموس. وسيقول لك حسبما نعرف وما نستطيع أن نعرف لا يوجد خالق أو مشرع للكون، وبقدر ما يتعلق الأمر بنا لا يمكن استحداث المادة والطاقة ولا افناؤهما. الفكر بالنسبة إلينا هو شكل للطاقة ووظيفة للدماغ وجل ما

---

(39) بمعنى يطلب إليك الكف عن الكلام والرحيل.

نعرفه هو أن العالم المادي محكوم بقوانين ثابتة، وهكذا دواليك. . . إذاً، بقدر ما هو رجل علم، وبقدر ما يعرف شيئاً ما، فهو مادي، إنما خارج علمه، وفي المجالات التي لا يعرف فيها شيئاً، يترجم جهله إلى اليونانية ويسميه لاأدرية[40].

وعلى أي حال فإن شيئاً واحداً يبدو واضحاً: هو أنني حتى لو كنت لاأدرياً فمن البيِّن أنني ما كنت لأستطيع وصف التصور التاريخي المعروض بخطوطه العريضة في هذا الكراس بـ «اللاأدرية التاريخية»؛ فالمتدينون سيهزأون بي وسيسألني اللاأدريون باستياء ما إذا كنت أريد أن أسخر منهم. ولذا آمل ألا أسرف في صدم الاحترامية البريطانية إذا ما استعملت في الإنكليزية، كما في كثير من اللغات الأخرى لفظة «مادية تاريخية» للدلالة على تلك **النظرة إلى مجرى التاريخ التي تبحث عن السبب النهائي والقوة المحركة الكبرى لكل الأحداث التاريخية المهمة في التطور الاقتصادي للمجتمع، في التغيرات في أنماط**

---

(40) إشارة إلى الأصل اليوناني لكلمة agnosticism المؤلفة من «a» بمعنى ـ لا، انعدام و gnos الغنوص أو المعرفة.

الإنتاج والتبادل وفي ما ينتج عنها من انقسام المجتمع إلى طبقات متميزة، وفي تصارع تلك الطبقات.

وقد أمنح هذا الإذن بمزيد من التساهل، إذا ما بينت أن المادية التاريخية قد تكون مفيدة حتى للاحترامية البريطانية. لقد سبق أن أشرت إلى واقعة أن أي مثقف أجنبي كان يقيم في بريطانيا قبل أربعين أو خمسين سنة، كان يصدمه، ما كان لزاماً عليه أن يعتبره آنذاك، تزمتاً دينياً وحماقة لدى حضرة الطبقة المتوسطة الانكليزية المحترمة. وسأشرع الآن في إظهار أن حضرة الطبقة الإنكليزية المحترمة في ذلك الحين لم تكن على هذه الدرجة من الحماقة كما تراءى للأجنبي الحصيف. إن ميولها الدينية يمكن أن تفسر:

عندما خرجت أوروبا من العصور الوسطى كانت **الطبقة الوسطى المدينية الصاعدة تشكل عنصرها الثوري**. وكانت [هذه الطبقة] تحتل مركزاً مرموقاً ضمن التنظيم الإقطاعي القروسطي، ولكن هذا المركز أصبح أيضاً أضيق من أن يناسب قدرتها التوسعية. وأصبح التطور الحر للطبقة الوسطى، **للبورجوازية**، متعارضاً مع بقاء النظام الاقطاعي. كان لا بد إذن للنظام الإقطاعي من أن يسقط.

بيد أن مركز الإقطاعية العالمي الكبير كان الكنيسة

الرومانية الكاثوليكية. وقد وحدت هذه، أوروبا الغربية الإقطاعية بأسرها رغم كل حروبها الداخلية في نظام سياسي كبير واحد، معارض لليونانيين المنشقين[41] بقدر معارضته للبلدان المحمدية. وأحاطت المؤسسات الإقطاعية بهالة من القدسية الإلهية. ونظمت تراتبيتها الخاصة حسب النموذج الإقطاعي. وغدت، أخيراً، هي نفسها السيد الاقطاعي الأقوى تملك ما لا يقل عن ثلث أراضي العالم الكاثوليكي. [لذا] كان لا بد من تدمير تنظيمها المركزي المقدس، قبل أن يصبح بالإمكان الهجوم على الإقطاعية الدنيوية بنجاح، في كل بلد وبالتفصيل.

أضف إلى ذلك، أن صعود الطبقة الوسطى كان يسير جنباً إلى جنب مع الازدهار العظيم للعلم. فقد تجددت العناية بعلم الفلك وبالميكانيك والفيزياء وعلم التشريح والفسيولوجيا. إذ إن البورجوازية كانت، من أجل تطوير إنتاجها الصناعي، بحاجة إلى علم يتأكد من الخواص الفيزيائية للمواضيع الطبيعية، ومن أنماط فعل قوى الطبيعة. ولم يكن العلم، حتى ذلك الحين، سوى خادم للكنيسة وضيع، لم تسمح له قط بتخطي الحدود التي

(41) هم، أتباع الكنائس المسيحية الشرقية التي لا تعترف بسيادة روما.

فرضها الإيمان، ولذا لم يكن علماً على الإطلاق. تمرد العلم على الكنيسة، وتعيَّن على البورجوازية، التي لم تكن لتستطيع أن تفعل شيئاً بدون العلم، أن تنضم إلى حركة التمرد.

إن ما تقدم ـ رغم أنه لا يتعلق إلّا باثنتين من النقاط التي كان لا بد للطبقة الوسطى الصاعدة من أن تدخل عندها في صدام مع الدين القائم ـ سيكون كافياً لتبيان: ـ أولاً، أن البورجوازية كانت الطبقة المعنية أكثر من سواها، بشكل مباشر، بالنضال ضد مزاعم الكنيسة الرومانية. ـ ثانياً، أن كل نضال ضد الاقطاعية كان لا بد وأن يرتدي في ذلك العصر حلة دينية، وأن يوجه في المقام الأول ضد الكنيسة. لكن، إذا كانت الجامعات وتجار المدن أطلقوا الصرخة، فلأنه كان من المؤكد أنها ستلاقي ـ وقد لاقت فعلاً، صدىً قوياً بين جماهير الأرياف والفلاحين، الألى كان عليهم، في كل مكان، أن يتصارعوا، في سبيل البقاء، مع أسيادهم الاقطاعيين، الروحيين منهم والزمنيين.

وقد بلغ صراع البورجوازية الأوروبية الطويل ضد الاقطاع ذروته في ثلاث معارك كبرى وحاسمة:

الأولى، هي ما يسمى بالإصلاح البروتستانتي في

ألمانيا. فقد استجابت انتفاضتان ذاتا طبيعة سياسية لصرخة الحرب التي أطلقها لوثر[42] ضد الكنيسة: أولاها انتفاضة صغار النبلاء بقيادة فرانتس فون زيكينغن[43] (1523) ثم حرب الفلاحين الكبرى (1525). وقد هزمت كلتاهما، أساساً، بسبب تردد الأطراف ذات المصلحة الأولى بهما، أي سكان المدن. ولا يسعنا هنا أن نبحث في أسباب ذلك التردد. ومنذ ذلك الحين انحط الصراع إلى عراك بين الأمراء المحليين والسلطة المركزية، مما أدى، على مدى قرنين من الزمن، إلى شطب ألمانيا من مجموعة الأمم الأوروبية الفاعلة سياسياً. [ومهما يكن من أمر، فقد] أنجب الإصلاح اللوثري عقيدة جديدة حقاً،

---

(42) Martin Luther (1483 ـ 1546) هو رائد الإصلاح الديني المسمى بالبروتسانتية أو الاحتجاج ضد بيع صكوك الغفران. قام إصلاحه على رفض بعض العقائد الكاثوليكية مثل وجود المطهر وعصمة البابا وقدسية مريم العذراء وعزوبية رجال الدين، ونادى بإمكان العودة المباشرة إلى الإنجيل بصرف النظر عن تفسيرات الكنيسة. وقد شجعت دعوته الأمراء والألمان على اقتطاع ممتلكات الكنيسة والاستقلال عن البابوية. (راجع أيضاً المتن).

(43) هو Franz von Sickingen (1481 ـ 1523) فارس ألماني، انضم إلى حركة الإصلاح الديني.

ديناً مكيفاً بما يتلاءم مع الملكية المطلقة. وما إن اهتدى فلاحو شمال شرق ألمانيا إلى اللوثرية حتى تحولوا من أناس أحرار إلى أقنان.

لكن، حيث فشل لوثر نجح كالفن[44]. فعقيدته استجابت لحاجات البورجوازية الأكثر تقدماً في زمنه. ومذهبه في القضاء والقدر كان التعبير الديني عن واقعة أن النجاح أو الإفلاس، في عالم المزاحمة التجاري، غير مرهون بنشاط الإنسان ولا بذكائه بل بالظروف المستقلة عنه. هذه الظروف ليست خاضعة لإرادة أحد أو سعيه، بل هي تحت رحمة قوى اقتصادية متفوقة ومجهولة. كان هذا صحيحاً، بصفة خاصة، في مرحلة من الثورة الاقتصادية أزيحت فيها الطرق والمراكز التجارية القديمة

---

(44) Jean Calvin (1509 ـ 1564) هو صاحب المذهب البروتستانتي المعروف باسمه والذي ضمن فلسفته الدينية في كتابه «المؤسسة المسيحية». أهم ما ترتكز عليه هذه الفلسفة هو أن الكنيسة ليست مؤسسة الهية وليس لها سلطة التشريع في مسائل الإيمان. وعبادة القديسين والتزين بالصور والأيقونات والصلبان ليسا سوى نوع من الوثنية. ولا نفع الأعمال الخير في الخلاص، لأن الخلاص موهبة من الله. والإنسان قد كتب قدره فهو مسير لا مخير ولم يبق له سوى أن يؤمن ويميت نفسه وينتظر قرار الله بشأنه.

كافة وأبدلت بها أخرى جديدة، وفتحت الهند وأميركا أمام العالم، وأخذت تهتز وتتهاوى بنود الإيمان الاقتصادي الأكثر قدسية بقدمها ـ قيم الذهب والفضة. كان دستور كالفن الكنسي ديموقراطياً وجمهورياً بكليَّته. فحيث كانت مملكة الله تتحول إلى جمهورية، هل كان باستطاعة ممالك هذا العالم البقاء خاضعة لسيطرة الملوك والأساقفة والأسياد؟ [وهكذا] في حين أصبحت اللوثرية الألمانية أداة طيعة بأيدي الأمراء، أنشأت الكالفينية جمهورية في هولندا، وأحزاباً جمهورية نشطة في انكلترا، وخاصة في اسكتلندا.

وجدت الانتفاضة الكبرى الثانية للبورجوازية في الكالفينية مذهباً جاهزاً ومفصلاً على مقاسها. وقد حدثت هذه الانتفاضة في انكلترا. أحدثتها الطبقة الوسطى في المدن وخاض غمارها «يوامنه»[45] الأرياف. **ومن الطريف فعلاً أن يشكل الفلاحون، في ثورات البورجوازية الكبرى الثلاث، قوام الجيش الذي كان عليه أن يقاتل، ويكونوا، هم بالذات، الطبقة التي تعرضت بعد النصر لأشد أنواع**

---

(45) اليوامنه Yeomen هم صغار الملاكين الأحرار الذين يزرعون أرضهم بأنفسهم.

الدمار من جرّاء النتائج الاقتصادية لذلك النصر. فبعد مئة سنة من كرومويل[46]، أصبح يوامنه إنكلترا في حكم المضمحلين. ورغم ذلك، فلولا اليوامنه وعنصر العامة في المدن لما تمكنت البورجوازية، بقواها الذاتية، من متابعة النضال حتى النهاية المريرة وإيصال شارل الأول إلى المشنقة. ولضمان حتى تلك الانتصارات التي حققتها البورجوازية وباتت يانعة وجاهزة للقطاف في ذلك الوقت، كان لا بد من دفع الثورة أبعد بكثير ـ تماماً كما في فرنسا عام 1793 وفي ألمانيا عام 1848... ويبدو أن ذلك، هو بالفعل، أحد قوانين تطور المجتمع البورجوازي.

وكان لا بد أن يعقب، ذلك الإفراط في النشاط الثوري، ردة رجعية تجاوزت بدورها النقطة التي كان بالإمكان أن تقف عندها. وبعد سلسلة من التأرجحات عثر في النهاية على مركز الثقل الجديد ليصبح نقطة انطلاق جديدة. وانتهت المرحلة الكبرى من التاريخ الإنكليزي،

(46) هو Oliver Cromwell (1599 ـ 1658) زعيم البورجوازية والأريستقراطية المتبرجزة إبان الثورة الإنكليزية. وابتداءً من 1653 أصبح زعيماً لإنكلترا واسكتلندا وايرلندا.

المعروفة لدى الاحترامية باسم «العصيان الكبير» والصراعات التي أعقبتها، بحدث حقير نسبياً يطلق عليه المؤرخون الليبراليون اسم «الثورة المجيدة»[47].

نقطة الانطلاق الجديدة كانت تسوية بين الطبقة الوسطى الصاعدة وكبار الملاكين الاقطاعيين السابقين. وكان هؤلاء، رغم نعتهم في السابق، كما اليوم، بالاريستقراطية في طريقهم لأن يصبحوا، منذ زمن طويل، ما أصبحه لويس فيليب، بعدهم بكثير، في فرنسا: «البورجوازي الأول في المملكة». ولحسن حظ إنكلترا، تذابح البارونات الاقطاعيون القدامى أثناء حروب الوردتين[48].

---

(47) أطلق هذا الاسم، في التأريخ البورجوازي البريطاني على الانقلاب الذي وقع عام 1688 وأدى إلى الإطاحة بسلالة استيوارت وأقام نظاماً ملكياً دستورياً برئاسة وليام أورانج (ابتداء من 1689) قائماً على تسوية بين الاريستقراطيين مالكي الأراضي والبورجوازية الكبيرة.

(48) هي التي حصلت بين 1455 و1485 بين ممثلي عائلتين من الاقطاعيين الإنكليز كانتا تتنافسان على التاج، هما عائلة يورك وشعارها رسم وردة بيضاء، وعائلة لنكاستر وشعارها رسم وردة حمراء. ناصر آل يورك قسم من الاقطاعيين في الجنوب المتطور اقتصادياً والفرسان وسكان المدن. وناصرت الاريستقراطية الاقطاعية=

أما أخلافهم فبرغم كونهم يتحدرون عموماً من العائلات القديمة نفسها، فإن فروعهم قد ابتعدت عن تلك الأصول إلى حد أنها شكلت جسماً جديداً تماماً له عادات ونزعات بورجوازية أكثر منها اقطاعية. كانوا يعرفون تمام المعرفة قيمة النقد فشرعوا فوراً في زيادة ريوعهم بطرد مئات المزارعين والاستعاضة عنهم بالأغنام. وخلق هنري الثامن، بتبديده لأراضي الكنيسة، مالكي أراض بورجوازيين جدداً بالجملة. وأدى ما لا يحصى من مصادرة الملكيات وإعادة اقطاعها للمحدثين ـ إطلاقاً أو نسبياً ـ في النعمة، وما استمر طوال القرن السابع عشر إلى النتيجة نفسها. لم تكن «الاريستقراطية» الانكليزية منذ عهد هنري السابع، إذن، تعمل على كبح تطور الإنتاج الصناعي بل قد سعت، على العكس من ذلك، إلى الإفادة منه بصورة غير مباشرة. ووجد، كذلك، دائماً قطاع من كبار مالكي الأراضي مستعد، بدوافع اقتصادية وسياسية، للتعاون مع زعماء البورجوازية المالية والصناعية. ومن هنا

= الشمالية آل لنكاستر. انتهت الحرب بالقضاء على العائلات الاقطاعية القديمة وباستيلاء سلالة تيودور على الحكم وإقامة الملكية المطلقة.

أمكن أن تتحقق تسوية 1689 بسهولة. فقد تركت غنائم «المال والجاه» السياسية للعائلات المالكة الكبيرة شرط مراعاة المصالح الاقتصادية للطبقة الوسطى المالية والصناعية والتجارية. وكانت هذه المصالح، في ذلك الوقت، من القوة بما يكفي لتحديد السياسة العامة للأمة. وقد توجد، ثمة، نزاعات كثيرة حول بعض المسائل التفصيلية إلّا أن الطغمة الاريستقراطية، ككل، كانت تعرف تمام المعرفة أن ازدهارها الاقتصادي مرتبط ارتباطاً لا ينفك بازدهار الطبقة الوسطى الصناعية والتجارية.

منذ ذلك الحين، أصبحت البورجوازية جزءاً متواضعاً، لكن معترفاً به، من الطبقات الحاكمة في إنكلترا، جزءاً تشده إلى الأجزاء الأخرى مصلحة مشتركة هي استمرارية إخضاع سواد جمهور الشغيلة في الأمة. فقد احتل التاجر، أو رب العمل نفسه، تجاه كتبته وشغيلته وخدمه، مركز ولي نعمتهم، أو كما كان يقال حتى وقت قريب، مركز «الرئيس الطبيعي» لهم. وكانت مصلحته تقضي عليه بأن ينتزع منهم أقصى ما يمكن من العمل وأجوده. وفي هذا السبيل كان لا بد من تدريبهم على الرضوخ المناسب. لقد كان هو نفسه متديناً، وكان دينه هو الراية التي حارب في

ظلها الملك والأسياد، فلم يطل به الوقت ليكتشف الفرص التي يتيحها هذا الدين نفسه في الفعل في أذهان مرؤوسيه الطبيعيين وجعلهم طوع رغبات **أولياء نعمتهم وأولئك الذين أسرّ الله أن يضعهم فوقهم**. وباختصار، كان على البورجوازية الإنكليزية أن تشارك الآن في اضطهاد «الرتب الدنيا»، سواد جماهير الشعب المنتجة. وكان فعل الدين إحدى الوسائل المستخدمة في سبيل ذلك.

وثمة أمر آخر أسهم في تعزيز الميول الدينية لدى البورجوازية، هو صعود المادية في انكلترا. فلم يكن هذا المذهب الجديد ليصدم فقط مشاعر التقوى لدى الطبقة الوسطى، بل أعلن نفسه فلسفة مناسبة فقط للعلماء والمثقفين في العالم، على العكس من الدين المناسب، بما فيه الكفاية، للجماهير غير المتعلمة بمن فيها البورجوازية. فمع هوبس ظهرت المادية على المسرح كمدافع عن امتيازات الملكية وجبروتها. ودعت الملكية المطلقة إلى إبقاء **ذلك الولد الصلب والماكر معاً**[49]، الذي هو الشعب، تحت النير. والأمر نفسه حصل مع

---

(49) بإزاء الصيغة اللاتينية puer robustus sed malitiouse التي أوردها إنجلز في المتن.

أخلاف هوبس، مع بولينغبروك[50] وشفتسبوري[51] وغيرهما، وبقي شكل المادية التالية ـ طبيعي الجديد مذهباً اريستقراطياً للخاصة، وبالتالي مذهباً تستقبحه البورجوازية سواءٌ بسبب هرطقته الدينية أم بسبب ارتباطاته السياسية المعادية للبورجوازية. وعليه، وخلافاً لهذه المادية وللتأليه ـ الطبيعي الاريستقراطي، ظلت تلك الشيع البروتستانتية التي سبق أن وفرت الراية والمقاتلين لمحاربة آل ستيورات هي التي توفر القوة الرئيسية للطبقة الوسطى التقدمية وما تزال تشكل اليوم العمود الفقري لـ «الحزب الليبرالي الكبير».

في غضون ذلك انتقلت المادية من إنكلترا إلى فرنسا، حيث التقت مدرسة مادية فلسفية أخرى منحدرة من الديكارتية[52] والتحمت بها. وفي فرنسا أيضاً ظلت

---

(50) هو Henri Bolingbroke (1678 ـ 1751) سياسي وفيلسوف تأليه ـ طبيعي انكليزي، وأحد زعماء حزب توري (أنظر هامش توري).

(51) هو الكونت Anthony Shaftesbury (1671 ـ 1713) فيلسوف إنكليزي تأليه ـ طبيعي، ينتمي سياسياً إلى الويغ (أنظر هامش ويغ).

(52) المدرسة الفلسفية التي أسسها ديكارت. وتتميز بثنائية أساسية تجمع بين مادية العالم وقابليته للمعرفة وبين روحانية النفس. وقد طورت المادية اللاحقة الجانب الأول من ثنائيته.

المادية، بادىء الأمر، مذهباً اريستقراطياً حصراً إلّا أنه سرعان ما أكد طابعها الثوري ذاته، فلم يقصر الماديون الفرنسيون انتقاداتهم على مسائل المعتقد الديني وحده، بل وسعوه ليشمل كل ما كان يواجههم من تقاليد علمية أو مؤسسات سياسية. ولكي يثبتوا أن مذهبهم كان ذا تطبيق كلي، لجأوا إلى أقصر الطرق وطبقوها بجرأة على جميع فروع المعرفة في عمل عملاق اشتهروا باسمه هو **الموسوعة**. وهكذا أصبحت المادية، بواحد أو بآخر من شكليها ـ المادية السافرة أو التأليه الطبيعي ـ مذهب كل الشبيبة المتعلمة في فرنسا إلى درجة، أنه عندما اندلعت الثورة الكبرى، قدم المذهب الفلسفي الذي أنجبه الملكيون الانكليز الراية النظرية للجمهوريين والإرهابيين الفرنسيين، وزودهم بنص إعلان حقوق الإنسان[53].

وكانت الثورة الفرنسية الكبرى انتفاضة البورجوازية **الثالثة**. غير أنها كانت الأولى التي خلعت الرداء الديني

---

(53) «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» أقرته الجمعية التأسيسية الفرنسية عام 1789. وقد تضمن المبادىء السياسية للنظام البورجوازي الجديد. وأهمها الإقرار بأن الناس متساوون في الحقوق وأحرار. واعتبار الملكية حقاً مقدساً. وسيادة القانون البورجوازي. وقد أدرج الإعلان في دستور 1791.

كلياً وخاضت جميع معاركها على خطوط سياسية مكشوفة. وكانت الأولى أيضاً التي واصلت النضال حتى إبادة أحد الطرفين المتحاربين، الاريستقراطية، وحتى الانتصار الكامل للطرف الآخر، البورجوازية، أما في انكلترا، فإن استمرارية المؤسسات السابقة على الثورة واللاحقة لها، إضافة إلى التسوية بين كبار ملاكي الأراضي والرأسماليين، قد وجدت تعبيرها في استمرارية السوابق الحقوقية وفي المحافظة الورعة على أشكال القانون الاقطاعية. في فرنسا قطعت الثورة كل صلة بتقاليد الماضي وأزالت آخر بقايا الاقطاعية، ووضعت **القانون المدني**[54] الذي كيَّف مع ظروف الرأسمالية الحديثة القانون الروماني القديم ـ ذلك التعبير شبه الكامل عن العلاقات الحقوقية المناسبة لمرحلة التطور الاقتصادي التي يسميها ماركس إنتاج السلع ـ تكييفاً من البراعة بحيث أن القانون الثوري الفرنسي لا يزال يتخذ حتى اليوم نموذجاً لإصلاح قانون الملكية في جميع البلدان الأخرى، بما فيها انكلترا. وعلينا ألّا ننسى، مع ذلك، أنه إذا كان

---

(54) Code Civil هو أحد القوانين الخمسة التي سنت في فرنسا في عهد نابوليون الأول وصاغ القانون البورجوازي في سستام كامل.

القانون الانكليزي قد استمر في التعبير عن العلاقات الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي بلغة الاقطاع البربرية التي تتفق والشيء المعبر عنه مثلما يتفق الإملاء الانكليزي مع اللفظ الانكليزي ـ كان أحد الفرنسيين يقول تكتبون لندن بينما تلفظون القسطنطينية ـ فإن ذلك القانون الانكليزي نفسه هو القانون الوحيد الذي حفظ على مرّ العصور، ونقل إلى أميركا والمستعمرات، الجانب الأفضل من الحرية الشخصية الجرمانية، والحكم الذاتي المحلي، والاستقلال إزاء كل تدخل باستثناء تدخل محاكم القضاء، ذلك الجانب الأفضل الذي ذهب أدراج الرياح في القارة في عهد الملكية المطلقة، ولم يستعد حتى الآن كلياً في أي مكان.

ولنعد الآن إلى صاحبنا البورجوازي الانكليزي. لقد أتاحت له الثورة الفرنسية فرصة رائعة ليدمر، بمساعدة الملكيات القارية، التجارة البحرية الفرنسية، ويلحق مستعمرات فرنسية ويسحق آخر مطامح فرنسا في المنافسة على البحار. ذلك كان أحد الأسباب التي حملته على محاربة الثورة. والسبب الآخر هو أن أساليب هذه الثورة كانت تذهب إلى أبعد بكثير مما يحتمله طبعه، لا بإرهابها «البغيض» فحسب، بل وأيضاً بمحاولتها تحقيق السيطرة

البورجوازية إلى أقصى الحدود. فما عسى البورجوازي الإنكليزي أن يفعل دون أريستقراطيته التي لقنته آداب السلوك ـ على علاتها ـ وابتكرت موَضه، وقدمت له ضباطاً للجيش الذي حفظ النظام في الداخل، وللبحرية التي استولت على مواقع استعمارية وأسواق جديدة في الخارج؟ وصحيح أنه كانت ثمة أقلية تقدمية من البورجوازية لم تكن التسوية تخدم مصالحها كثيراً، وأن هذه الفئة، المؤلفة، بصورة رئيسية من الطبقة الوسطى الأقل يسراً، كانت تتعاطف مع الثورة [الفرنسية] إلّا أنها كانت عاجزة في البرلمان.

وهكذا، ففي حين العقلانية تصبح عقيدة للثورة الفرنسية، كان البورجوازي الانكليزي الذي يخشى الله يزداد تشبثاً بدينه. ألم يظهر عهد الارهاب(55) في باريس ما قد يحصل فيما لو فقدت العامة غرائزها الدينية؟! فكلما كانت المادية تزداد انتشاراً من فرنسا إلى البلدان المجاورة معززة بتيارات مذهبية مشابهة لها، ولا سيما بالفلسفة الألمانية، بل في الحقيقة كلما كان تحوّل المادية والتفكير

---

(55) المقصود بعهد الارهاب تلك الفترة من ديكتاتورية اليعاقبة الثورية الديموقراطية (حزيران 1793 إلى تموز 1794).

الحر إلى صفات لازمة لكل إنسان مثقف في القارة يتعاظم، كانت الطبقة الوسطى الإنكليزية تزداد عناداً وتشبثاً بنحلها الدينية المتنوعة. ولربما اختلفت هذه النحل بعضها عن بعض إلا أنها كانت جميعها متدينة ومسيحية بشكل متميز.

وبينما كانت الثورة تؤمن الانتصار السياسي للبورجوازية في فرنسا، كان واط وأركرايت وكارترايت[56] وغيرهم يمهدون، في انكلترا، لثورة صناعية نقلت كلياً مركز ثقل القوة الاقتصادية. فتعاظمت ثروة البورجوازية بسرعة تفوق بما لا يقاس تعاظم ثروة اريستقراطية الأراضي. وفي البورجوازية نفسها أزاح الصناعيون الاريستقراطية المالية وأصحاب البنوك إلى المرتبة الثانية. ولم تعد تسوية 1689 ـ حتى مع التغييرات التدريجية التي طرأت عليها لمصلحة البورجوازية ـ تتوافق مع الموقع النسبي لأطرافها. وتغير، كذلك، طابع تلك الأطراف. فبورجوازية 1830 اختلفت اختلافاً كبيراً عن بورجوازية القرن السابق. والسلطة

---

(56) هم بالتسلسل Watt الذي اخترع الآلة البخارية و Arkwright الذي اخترع ماكنة الغزل و Cartwrigt الذي اخترع ماكنة الحياكة. وجرى ذلك كله بين 1764 و1790.

السياسية، التي ظلت في أيدي الاريستقراطية تستخدمها لمقاومة مطامح البورجوازية الصناعية الجديدة، لم تعد تتلاءم مع المصالح الاقتصادية الجديدة. وكان لا بد من صراع جديد ضد الاريستقراطية، صراعاً لم يكن يمكن أن ينتهي إلّا بانتصار القوة الاقتصادية الجديدة: تمَّ بادىء الأمر، وبحافز من ثورة 1830 الفرنسية، تمرير قانون الإصلاح(57) رغم كل المقاومة. وأعطى ذلك للبورجوازية موقعاً معترفاً به، قوياً داخل البرلمان. ثم جاء إلغاء قوانين الحبوب(58) ليضمن مرة والى الأبد غلبة البورجوازية على

---

(57) هو Reform Act أو قانون الإصلاح الانتخابي الذي أقره مجلس العموم البريطاني عام 1831 وصادق عليه مجلس اللوردات عام 1832، وكان موجهاً ضد الاحتكار السياسي للأرستقراطية ففتح الطريق إلى البرلمان لممثلي البورجوازية الصناعية. ولم تحظ البروليتاريا ولا البورجوازية الصغيرة بحق الانتخاب من جرائه.

(58) قوانين الحبوب، أقرها البرلمان الانكليزي عام 1815 لمصلحة كبار أسياد الأراضي اذ فرض رسوماً جمركية عالية على استيراد الحبوب. ولم يكن ذلك في مصلحة البورجوازية الصناعية لأنه أدى إلى ارتفاع ثمن قوة العمل وانخفاض قدرة السوق الداخلية وعرقلة تطور التجارة الخارجية. وكان أن نظمت البورجوازية عصبة برئاسة كوبدن وبرايت للنضال ضد هذه القوانين فألغاها البرلمان الإنكليزي في حزيران 1846.

الاريستقراطية العقارية، وأساساً غلبة الفئة الأكثر نشاطاً فيها، الصناعيين. كان هذا أعظم انتصار أحرزته البورجوازية ولكنه أيضاً آخر انتصار تحرزه لمصلحتها الخاصة حصراً. ذلك أن جميع الانتصارات التي أحرزتها فيما بعد كان عليها أن تتقاسمها مع قوة اجتماعية جديدة، كانت في البدء حليفتها لكن سرعان ما ستنقلب إلى منافسة لها.

الثورة الصناعية خلقت طبقة من الرأسماليين الصناعيين الكبار. لكنها خلقت أيضاً طبقة من عمال الصناعة تفوقهم بكثير عدداً. وبقدر ما كانت الثورة الصناعية تستحوذ على فروع الصناعة فرعاً إثر آخر، كانت طبقة العمال تزداد عدداً بالتدريج وتتعاظم قوتها بالمقابل. تلك القوة التي أثبتتها منذ 1824 عندما أجبر البرلمان المتعنت على إلغاء القوانين التي تحظر حرية التجمع العمالي. فأثناء التحريض لقانون الإصلاح كان العمال يشكلون الجناح الراديكالي لحزب الإصلاح، وعندما استثناهم قانون الإصلاح لعام 1832 من حق التصويت، صاغوا مطالبهم في ميثاق الشعب وانتظموا، ضد الحزب البورجوازي الكبير المعادي

لقانون الحبوب، في حزب مستقل هو الحزب الميثاقي[59]، أول حزب عمالي في العصور الحديثة.

ثم جاءت ثورتا شباط وآذار 1848 القاريتان، اللتان لعب فيهما العمال دوراً بارزاً بحيث أنهم طرحوا، في باريس على الأقل، مطالب كانت، بكل تأكيد، غير مقبولة من وجهة نظر المجتمع الرأسمالي. وحلت إثر ذلك الردة العامة: أولاً هزيمة الميثاقيين في 10 نيسان 1848، ثم سحق انتفاضة العمال الباريسيين في حزيران من العام نفسه، ثم كوارث 1849 في إيطاليا وهنغاريا وألمانيا الجنوبية، وأخيراً انتصار لويس بونابرت على باريس في 2 كانون الأول 1851. وهكذا أطيح، لبعض الوقت على الأقل، بفزاعة **المطامح العمالية**. لكن بأي ثمن! وإذا كان البورجوازي الانكليزي، فيما مضى، مقتنعاً بضرورة ابقاء

---

(59) وأنصاره الميثاقيون The Chartists بالنسبة إلى ميثاق الشعب. وقد نشر في 8 أيار 1838 بصفة مشروع قانون لتقديمه إلى البرلمان. وكان يتضمن بنوداً ستة: الحق الانتخابي العام (للرجال)، الانتخاب السنوي للبرلمان، الاقتراع السري، مساواة الدوائر الانتخابية، الغاء شرط الضمانة المالية بالنسبة للمرشحين إلى البرلمان، دفع رواتب للنواب. وقد قدم الميثاقيون ثلاث عرائض بطلب الموافقة على ميثاق الشعب فرفضها البرلمان تباعاً في 1839 و1842 و1849.

سواد الشعب في مزاج ديني، فكم كان مبلغ شعوره بتلك الضرورة بعد كل تلك التجارب! لقد تابع، دون أن يعير أدنى انتباه لسخريات زملائه القاريين، انفاق الألوف وعشرات الألوف، سنة إثر سنة، لأنجلة[60] الرتب الدنيا. واستغاث بالأخ جوناثان[61] ـ أعظم منظم في الوجود للصفقات الدينية ـ غير قانع بماكينته الدينية الخاصة. واستورد الاحيائية[62] من أميركا: مودي وسانكي[63] وأمثالهما. وقبل، أخيراً، المساعدة الخطرة لجيش الخلاص الذي يستعيد دعاية المسيحية الأولى، ويناشد الفقراء باعتبارهم مصطفين، ويحارب الرأسمالية بطريقة

---

(60) أنجلة بإزاء évengelisation بمعنى جعلهم يعيشون تعاليم الإنجيل ويتصرفون على أساسه، عن طريق التبشير به.

(61) الأخ جوناثان، لقب ساخر أطلقه الإنكليز على الأميركيين أثناء حرب المستعمرات الأميركية الشمالية من أجل استقلالها عن انكلترا.

(62) الإحيائية Revivalism تيار في الكنيسة البروتستانتية نشأ في إنكلترا في النصف الأول من القرن 18 ثم انتشر في أميركا الشمالية. مهمة أتباعه إعادة إحياء (بعث) الدين المسيحي بالتبشير وتنظيم جمعيات المؤمنين.

(63) Sankey (1818 ـ 1881) و Moody (1840 ـ 1908) مبشران أميركيان يعتبران من مؤسسي تيار الإحيائية.

دينية، فينمي بذلك عنصر تناحر طبقي مسيحي أولي يمكن أن يصبح في يوم من الأيام مقلقاً بالنسبة للميسورين الذين يمدونه اليوم بالمال.

ويبدو قانوناً من قوانين التطور التاريخي، كون البورجوازية غير قادرة على الاستيلاء على السلطة والاستئثار بها ـ على الأقل لفترة طويلة ـ على نحو ما استأثرت بها الاريستقراطية الاقطاعية وحافظت عليها في القرون الوسطى. فحتى في فرنسا، حيث اقتلعت الاقطاعية اقتلاعاً تاماً، لم تحتفظ البورجوازية، ككل، بالسلطة كاملة إلّا لفترات قصيرة جداً. ففي عهد لويس فيليب (1830 ـ 1848) حكمت المملكة فئة صغيرة جداً فقط من البورجوازية، إذ إن الفئة الأكبر عدداً بكثير كانت قد استبعدت عن حق الانتخاب بضريبة الاشتراك الباهظة. وفي ظل الجمهورية الثانية (1848 ـ 1851) حكمت البورجوازية كلها ولكن لثلاث سنوات ليس إلّا، وأتى عجزها بالإمبراطورية الثانية. والآن فقط، وفي ظل الجمهورية الثالثة، حافظت البورجوازية، ككل، على دفة الحكم أكثر من عشرين عاماً. وهي تبدي الآن حيوية أعراض انحطاطها. ولم تكن سيطرة البورجوازية، لمدى

طويل، ممكنة إلّا في بلدان كأميركا، حيث لم يعرف الاقطاع وحيث قام المجتمع منذ البداية على أساس بورجوازي. لكن، حتى في فرنسا وأميركا أخذ العمال، خلفاء البورجوازية، يطرقون الباب.

وفي انكلترا، لم تفز البورجوازية بالسلطة قط دون شريك. فحتى انتصار 1832 أبقى جميع الوظائف الحكومية الرفيعة في حوزة الأريستقراطية العقارية بشكل شبه حصري. وظلت الضعة، التي بها سلمت الطبقة الوسطى الغنية بهذا الوضع، غير مفهومة لدي إلى أن توسل الصناعي الليبرالي السيد و. أ. فورستر، في خطاب علني، إلى شبان برادفورد أن يتعلموا الفرنسية كوسيلة لشق طريقهم في الحياة، واستشهد، من تجربته الشخصية، بمبلغ غبائه عندما كان عليه، كوزير، أن يتعامل مع مجتمع كانت فيه الفرنسية لازمة بقدر لزوم الانكليزية على الأقل. وبالفعل فإن الطبقة الوسطى الانكليزية، في ذلك الوقت، كانت، كقاعدة [عامة] من حديثي النعمة، عديمي الثقافة، وما كان بمقدورها أن تفعل شيئاً سوى أن تترك للاريستقراطية تلك المناصب الحكومية الرفيعة حيث كان الأمر يتطلب مؤهلات أخرى غير ضيق الأفق الجزيري

والغرور الجزيري[64] وقد بُهِّرا بحذاقة أعمالية[65]. وحتى

---

(64) جزيري، بالنسبة إلى جزيرة، وإشارة إلى عزلة انكلترا الجزيرية.

(65) «حتى في مسائل الأعمال [business maters أو المسائل التجارية] ليس غرور الشوفينية القومية سوى نصيح يرثى له. فإلى وقت قريب كان الصناعي الانكليزي العادي يعتبر التحدث بلغة غير لغته أمراً يحط من قدر الانكليزي، وكان فخوراً لكون «شياطين مساكين» أجانب يقيمون في انكلترا ويريحونه من عناء تصريف منتوجاته في الخارج. ولم يخطر بباله قط أن أولئك الأجانب، ومعظمهم من الألمان، كانوا بهذه الطريقة، يستأثرون بقسم كبير من تجارة انكلترا الخارجية استيراداً وتصديراً على السواء. وأن التجارة الإنكليزية الخارجية المباشرة باتت مقتصرة، بصورة شبه كلية، على المستعمرات والصين والولايات المتحدة وأميركا الجنوبية. كما غاب عنه أن أولئك الألمان كانوا يتاجرون مع ألمان آخرين في الخارج وأنهم نظموا تدريجياً شبكة كاملة من المستعمرات التجارية في كل بقاع العالم. وعندما بدأت ألمانيا، منذ أربعين سنة تقريباً، تنتج بصورة جدية من أجل التصدير، قدمت تلك الشبكة خدمات رائعة في سبيل إكمال تحولها في وقت قصير من بلد مصدر للحبوب إلى بلد صناعي من الدرجة الأولى. ومنذ حوالى عشر سنوات، أصاب الصناعي الانكليزي الهلع وسأل سفراءه وقناصلته كيف حصل أنه لم يعد قادراً على الاحتفاظ بزبائنه وأجمعت الردود على القول: 1 ـ إنك لا تتعلم لغة زبونك وتتوقع منه أن يتكلم لغتك. 2 ـ إنك لا تحاول أن تلبي حاجات زبائنك وعاداتهم وأذواقهم بل=

في يومنا هذا، تظهر المناقشات الصحفية اللامتناهية حول التربية البورجوازية، أن الطبقة المتوسطة الانكليزية ما زالت تعتبر نفسها غير صالحة كفاية لتوفير ثقافة عالية، وتطمح إلى شيء أكثر تواضعاً. وهكذا بدا بديهياً، حتى بعد إلغاء قانون الحبوب، أن الذين أحرزوا النصر، آل كوبدن وبرايت وفوستر[66] الخ، كان لا بد من أن يظلوا مبعدين عن أي اشتراك في الحكومة الرسمية للبلاد، وكان عليهم أن ينتظروا عشرين عاماً كي يفتح أمامهم قانون إصلاح جديد[67] أبواب الوزارة. وما زالت البورجوازية

= تطلب منهم أن يعملوا بموجب حاجاتك وعاداتك وأذواقك الإنكليزية.» (ملاحظة إنجلز).

(66) هم Cobden (1804 ـ 1865) و Bright (1811 ـ 1889) و Forster (1818 ـ 1886) وهم صناعيون انكليز وسياسيون ليبراليون بارزون، أعضاء في البرلمان أو وزراء. كان الأولان من مؤسسي عصبة النضال ضد قوانين الحبوب أما الأخير فقد اشتهر بسياسة القمع الوحشية ضد حركة التحرر الايرلندي.

(67) هو القانون الذي أقره البرلمان الإنكليزي عام 1867 تحت ضغط الحركة العمالية. وقد شارك المجلس العام للأممية الأولى في الحملة من أجل الإصلاح. ونتج عن القانون الجديد تضاعف عدد الناخبين في انكلترا. وحظي قسم من العمال الموصوفين بحق التصويت.

الإنكليزية حتى اليوم مشبعة بشعور دونيتها الاجتماعية إلى حد أنها تنفق، من حسابها الخاص ومن حساب الشعب، على طبقة زخرفية من الكسالى كي تمثل الأمة التمثيل اللائق في جميع وظائف الدولة، وتعتبر نفسها مكرمة خير تكريم إذا ما وجد واحد منها أهلاً للدخول في هذا الجسم المصطفى الممتاز والذي هو، في النهاية، من صنع أيديها.

لم تكن، إذن، الطبقة الوسطى الصناعية والتجارية قد نجحت بعد، في طرد الاريستقراطية العقارية تماماً من السلطة السياسية عندما ظهر على المسرح منافس آخر هو الطبقة العاملة. وقد أخضعت الردة الرجعية التي أعقبت الحركة الميثاقية والثورات القارية، وكذلك توسع التجارة الإنكليزية من 1848 إلى 1868 توسعاً لا مثيل له (توسعاً يعزى بابتذال إلى التجارة الحرة وحدها، ويعود بدرجة أكبر بكثير من التطور الجبار لسكك الحديد وعابرات المحيطات البخارية ووسائل المواصلات عموماً)، قد أخضعا الطبقة العاملة مرة أخرى لتبعية الحزب الليبرالي التي كانت تشكل جناحه الراديكالي كما في مرحلة ما قبل الميثاقية. ولكن شيئاً فشيئاً أصبح مطلب العمال في حق الانتخاب مطلباً لا يقاوم. وبينما أخذ قادة الليبراليين

الويغ يصابون بالهلع، أثبت دزرائيلي تفوقه بإجبار أعضاء توري[68] على اقتناص اللحظة المناسبة واعتماد توسيع حق التصويت تبعاً لمكان السكن ليشمل الدوائر الانتخابية المدينية (تمتع بهذا الحق كل من كان يسكن في شقة خاصة)، وإعادة توزيع المقاعد. ثم جاء الاقتراع السري، وفي عام 1884 توسع حق التصويت تبعاً لمكان السكن ليشمل كل الأقاليم، وإعادة توزيع جديد للمقاعد جعلت الدوائر الانتخابية متساوية إلى حد ما. وبفضل هذه الإجراءات تعاظمت، بشكل هائل، القوة الانتخابية للطبقة العاملة بحيث باتت تلك الطبقة تشكل اليوم غالبية المقترعين في ما لا يقل عن 150 إلى 200 دائرة انتخابية. بيد أن الحكم البرلماني هو خير مدرسة لتعليم احترام التقاليد. وإذا كانت الطبقة الوسطى تنظر بإجلال

---

(68) الويغ Whigs والتوري Torie اسما الحزبين اللذين سيصبحان فيما بعد حزبي الأحرار (الليبرالي) والمحافظين. كان الأول يعبر عن مصالح الأوساط المالية والبورجوازية التجارية وعن مصالح قسم من الاريستقراطية المتبرجزة. أما الثاني فكان يعبر عن مصالح كبار ملاكي الأراضي والأوساط العليا من رجال الكنيسة. وكانا يتعاقبان على الحكم.

وورع إلى ما كان اللورد جون مانرز[69] يسميه بدعابة «نبلاءنا القدامى»، فإن سواد العمال كان ينظر باحترام وتقدير إلى ما كان يسمى في ذلك الوقت بـ «الطبقة الفضلى» أي الطبقة الوسطى. وبالفعل، كان العامل البريطاني، لخمس عشرة سنة خلت، العامل النموذجي الذي بنظرته المفعمة بالاحترام لمكانة سيده واتضاعه المنضبط في المطالبة بحقوقه، كان بالنسبة إلى أصحابنا الاقتصاديين الألمان اشتراكيي المنابر[70]، عزاء لهم على الميول الشيوعية والثورية المستعصية لدى عمال بلدهم.

---

(69) J. Manners (1818 ـ 1906) سياسي من حزب ثوري، عضو في البرلمان ووزير في عدة حكومات محافظة.

(70) أو اشتراكيي الكراسي، يطلق على أساتذة الجامعة الألمان الذين كانوا، من فوق المنابر الجامعية، يعلمون الإصلاحية البورجوازية ويقدمونها على أنها اشتراكية. وقد ذهبوا الى أن الدولة هي مؤسسة فوق الطبقات بوسعها أن توفق بين الطبقات المتعادية وأن تدخل «الاشتراكية» تدريجياً دون أن تضر بمصالح الرأسماليين. وقد اقتصر برنامجهم على المطالبة بتنظيم ضمان العمال ضد الأمراض والحوادث وبتطبيق بعض الإصلاحات في ميدان قانون العمل. وكانوا يعتبرون أن النقابات، فيما لو تنظمت بشكل جيد، تجعل النضال السياسي أمراً نافلاً وكذلك وجود حرف سياسي للطبقة العاملة. وقد كانت اشتراكية المنابر أحد مصادر التحريفية.

غير أن [أبناء] الطبقة الوسطى الانكليزية ـ وهم رجال أعمال ماهرون ـ كانوا أبعد نظراً من الأساتذة الألمان. فهم لم يشركوا الطبقة العاملة في السلطة إلّا على مضض. وقد تعلموا خلال سنوات الميثاقية ماذا كان بإمكان الشعب، ذاك **الولد الصلب والماكر معاً**، أن يفعل. فقد أرغموا منذ ذلك الحين على إلحاق القسم الأكبر من ميثاق الشعب في دستور المملكة المتحدة. وينبغي اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إلجام الشعب بوسائل معنوية. والدين كان وما يزال الوسيلة الأولى والرئيسية للفعل في الجماهير. من هنا الغالبية القسسية في المجالس المدرسية[71]، ومن هنا الضرائب المتعاظمة التي تفرضها البورجوازية على نفسها لتنفقها على شتى أنواع الاحيائية، بدءاً بالطقوسية وحتى جيش الخلاص.

والآن جاء انتصار الاحترامية البريطانية على التفكير الحر والتراخي الديني لدى البورجوازي القاري. فعمال

---

(71) Schoolboards هي اللجان المدرسية التي أنشئت سنة 1870. كانت مهمتها بناء المدارس الرسمية والانفاق عليها ـ باقتطاع قسم من الضرائب ـ وإجبار الأهالي على إرسال أولادهم الى المدرسة. وكان الفقراء منهم يعفون من الرسوم المدرسية.

فرنسا وألمانيا قد صاروا متمردين، وأصيبوا جميعاً بوباء الاشتراكية. ولأسباب مقنعة جداً، لم يكونوا ليكترثوا لشرعية الوسائل التي تؤمن سيطرتهم. وصار الولد الصلب، يوماً بعد يوم، أكثر مكراً. ولم يبق أمام البورجوازية، الفرنسية والألمانية، من ملاذ أخير سوى التخلص خلسة من تفكيرها الحر، من سيجاره المشتعل الذي أتى به مختالاً قبيل الابحار. وأخذ المجدفون، الواحد تلو الآخر، يتبنون قشور التقوى، ويتكلمون باحترام عن الكنيسة وعن تعاليمها وطقوسها، ويجارونها بالحد الأدنى الذي لم يكن منه بد. وانقطع البورجوازي الفرنسي عن الدسم أيام الجمعة[72]. وأصغى البورجوازي الألماني بورع للمواعظ البروتستانتية الطويلة أيام الآحاد. لقد حل بهم النكد مع المادية. **«ينبغي الاحتفاظ بالدين من أجل الشعب»**، فهو الوسيلة الوحيدة والأخيرة لإنقاذ المجتمع من الدمار الكامل. ومن سوء حظهم أنهم لم يكتشفوا ذلك إلّا بعد أن بذلوا قصارى جهدهم لتدمير

---

(72) الانقطاع عن الدسم، أحد أشكال الصوم المسيحي. ويتمثل بالانقطاع عن تناول اللحوم ومشتقاتها في يوم معين عن كل أسبوع.

الدين إلى الأبد. وقد جاء، الآن، دور البورجوازي البريطاني ليشمت بهم قائلاً: «أيها البلهاء، كان بإمكاني أن أقول لكم ذلك قبل 200 سنة».

ومع هذا، أخشى ألا تتمكن لا حماقة البورجوازي الانكليزية الدينية، ولا الاهتداء المتأخر للبورجوازي القاري، من كبح جماح المد البروليتاري الصاعد. فالتقليد هو قوة تأخيرية كبيرة، إنه **قوة عطالة**[73] التاريخ، ولكن بما أنه سلبي فقط فلا بد له من أن يسقط. والدين لن يكون، هو الآخر، سيداً أبدياً واقياً للمجتمع الرأسمالي. فإذا كانت أفكارنا الحقوقية والفلسفية والدينية هي حصيلة، بعيدة إلى هذا الحد أو ذاك، للعلاقات الاقتصادية السائدة في مجتمع معين، فإن مثل هذه الأفكار لا يسعها أن تصمد على المدى البعيد في وجه آثار تغير كامل في هذه العلاقات. وعلينا أن نسلم، إلا إذا كنا نؤمن بوحي فوق طبيعي، أن ليس ثمة من ركائز دينية تكفي لتدعيم مجتمع متداع.

---

(73) قوة العطالة بازاء vis inertiae وهي مقاومة الأجسام للحركة.

وبالفعل، وفي انكلترا أيضاً، بدأ العمال بالتحرك من جديد. ولا شك أنهم مكبلون بالتقاليد على اختلافها: فهناك تقاليد بورجوازية، كالاعتقاد الشائع أنه لا يمكن أن يكون هناك سوى حزبين، المحافظين والليبراليين، وأنه ينبغي للطبقة العاملة أن تظفر بتحررها بمساعدة الحزب الليبرالي الكبير ومن خلاله؛ وهناك تقاليد عمالية موروثة من عهد المحاولات الوجلة الأولى للقيام بعمل مستقل، كاستبعاد العديد من التريدنيونات (النقابات) القديمة لكل متقدم بطلب لم يقض فترة تدريب منتظمة، مما يعني أن كلاً من هذه النقابات يخلق لنفسه جماعة من كاسري الاضرابات. [لكن] برغم كل شيء فإن الطبقة العاملة الإنكليزية تتحرك، كما اضطر البروفسور برنتانو[74] أن يطلع أخوته الاشتراكيين المنبرين على ذلك. إنها تتحرك، ككل شيء في انكلترا، بخطى بطيئة محسوبة، بتردد هنا وبمحاولات عقيمة ووجلة بهذه الدرجة أو تلك هناك، وتتسع الحركة لتضم شرائح عمالية واحدة تلو أخرى. وها

(74) هو Lujop Brentano (1844 ـ 1931) اقتصادي بورجوازي ألماني مبتذل وأحد ممثلي اشتراكية المنابر.

هي قد أيقظت من خدرهم، الشغيلة غير الماهرين في طرف لندن الشرقي. وكلنا يعرف بأي دفع جبار قد رفدتها هذه القوى الجديدة بالمقابل. وإذا كانت وتيرة الحركة لا تشفي نفاد صبر البعض، فلا ننسَ أن الطبقة العاملة هي التي تبقي حية أطيب صفات الطبع الانكليزي. فالقاعدة أنه ما إن تنجز خطوة إلى الأمام في انكلترا حتى لا تعود تضيع فيما بعد. وإذا لم يكن أبناء الميثاقيين القدامى، لأسباب ذكرت آنفاً، على مستوى الأوضاع فإن أحفادهم يعدون بأن يكونوا جديرين بأسلافهم.

بيد أن انتصار الطبقة العاملة الأوروبية غير متوقف على انكلترا وحدها. ولا يمكن تأمينه إلا بالتعاون بين انكلترا وفرنسا وألمانيا على الأقل. فالحركة العمالية في البلدين الأخيرين متقدمة بأشواط عنها في انكلترا. وفي ألمانيا يمكن حتى قياس المسافة التي تفصلها عن النجاح: فالتقدم الذي أحرزته خلال الـ 25 سنة الأخيرة لا يضاهى، وهو يتزايد بسرعة مطردة. واذا كانت الطبقة الوسطى الألمانية قد أثبتت قصورها الفاجع في القدرات السياسية والانضباط والشجاعة والعزم والمثابرة، فإن الطبقة العاملة الألمانية قد أعطت أدلة كثيرة على أنها

تتمتع بكل تلك الخصال. قبل أربعة قرون كانت ألمانيا نقطة انطلاق للانتفاضة الأولى للطبقة الوسطى الأوروبية، فهل من المستحيل، في ظروف زماننا، أن تكون ألمانيا أيضاً مسرحاً للانتصار العظيم الأول للبروليتاريا الأوروبية؟

ف. إنجلز

20 نيسان 1892

راجعته على الأصل الإنكليزي
ودققته ووضعت هوامشه
لجنة دار الفارابي في بيروت

الاشتراكية الطوباوية

ـ 1 ـ

إن الاشتراكية الحديثة، من حيث محتواها، هي قبل كل شيء، ـ من جهة ـ نتاج وعي التناحرات الطبقية السائدة في مجتمع اليوم، بين مالكين وغير مالكين، رأسماليين وأجراء. وهي ـ من جهة أخرى ـ نتاج الفوضى المهيمنة على الإنتاج. إلّا، أنها بوجهها النظري، تظهر باديء الأمر كاستمرار أكثر تطوراً وأكثر اتساقاً، للمبادىء التي وضعها كبار فلاسفة الأنوار الفرنسيين في القرن الثامن عشر. وككل نظرية جديدة، كان لا بد لها، بادىء بدء، من أن تعتمد على رصيد الأفكار السابقة، رغم أن جذورها تمتد عميقاً إلى الوقائع الاقتصادية المادية.

إن الرجال العظام الذين أناروا، في فرنسا، العقول للثورة المقبلة، قد كانوا أنفسهم ثوريين للغاية. فلم يعترفوا

بأية سلطة خارجية من أي نوع كانت. الدين، تصور الطبيعة، المجتمع، تنظيم الدولة، كل ذلك قد أخضع للنقد الذي لا يرحم، كل شيء كان عليه أن يبرر وجوده أمام محكمة العقل، أو أن يتخلى عن الوجود. العقل المفكر كان المقياس الوحيد الذي يطبق على كل شيء. وكان ذلك في زمن وضع فيه العالم، كما يقول هيغل على رأسه[1]، بادىء الأمر، بمعنى أن العقل البشري والمبادىء

---

(1) في ما يلي الفقرة عن الثورة الفرنسية: «وفجأة كانت الفكرة، مفهوم الحق يصبح هو النافذ، بالمقابل لم يكن باستطاعة دعائم الاستبداد القديمة أن تصمد. على فكرة الحقوق إذن أقيم اليوم دستور وعلى تلك القاعدة كان ينبغي أن يرتكز كل شيء من الآن. منذ وجود الشمس في الفلك ودوران الكواكب حولها، لم نر الإنسان ينتصب على رأسه، أي على الفكرة ويبني الحقيقة بموجبها. أناكساغوراس Anaxagore كان أول من قال بأن النوس Nus العقل يحكم العالم، وها أن الإنسان قد توصل الى الاعتراف بأن الفكرة يجب أن تحكم الحقيقة. لقد كان ذلك شروقاً للشمس رائعاً. كل الكائنات المفكرة شاركت في الاحتفاء بذلك العصر. وساد انفعال سام ذلك العصر وارتعش العالم بأسره من حماس الروح، كما لو كنا نشهد لأول مرة مصالحة الإلهي مع العالم». (هيغل، فلسفة التاريخ، 1840). ألم يحن الوقت لاستنفار قانون العداء للاشتراكيين ضد الخطر العام الذي تمثله تعاليم المرحوم الأستاذ هيغل الثورية! (الملاحظة لإنجلز).

المكتشفة عن طريق تفكيره، كانت تدعي، أنها تشكل أساس كل عمل وكل تجمع بشري، وفيما بعد بالمعنى الأوسع، أي بمعنى أن الواقع الذي يتناقض مع تلك المبادىء قد انقلب بالفعل رأساً على عقب. وأعلنت كافة الأشكال السابقة للمجتمع والدولة وجميع الأفكار التقليدية القديمة المتوارثة، مخالفة للعقل، وألقي بها في سلة المهملات، بعد أن ترك العالم نفسه حتى ذلك الحين ينقاد بالأحكام المسبقة وحسب، وها قد أصبح كل ما كان يعود إلى الماضي لا يستحق سوى الشفقة والازدراء. وأخيراً طلع النهار. ومنذ الآن أصبح على الخرافة والظلم والامتياز والاضطهاد أن تخلي الطريق أمام الحقيقة الخالدة والعدالة الأبدية والمساواة القائمة على الطبيعة وحقوق الإنسان (المقدسة).

إلّا أننا اليوم نعرف أن سلطان العقل لم يكن سوى الحكم الذي أضفت عليه البورجوازية طابعاً مثالياً، وأن العدالة الأبدية قد وجدت تحقيقها في العدالة البورجوازية، وأن العدالة هذه قد أدت إلى المساواة البورجوازية أمام القانون، وأن الملكية البورجوازية قد أعلنت كأحد حقوق الإنسان الأساسية، وأن دولة العقل، دولة عقد روسو

الاجتماعي[2]، لم تظهر وما كان يمكن أن تظهر إلى الوجود إلّا بشكل جمهورية بورجوازية. وككل أسلافهم، لم يتمكن كبار مفكري القرن الثامن عشر من اجتياز العقبات التي وضعها أمامهم عصرهم نفسه.

بيد أنه إلى جانب التناحر القائم بين النبلاء الاقطاعيين والبورجوازية التي كانت تمثل سائر المجتمع، كان يقوم التناحر العام بين مستغِلِّين ومستغَلِّين، بين أغنياء كسالى وفقراء كادحين. وهذا الظرف بالذات هو الذي مكن ممثلي البورجوازية من طرح أنفسهم لا كممثلين لطبقة خاصة، بل لكل البشرية المعذبة. بل أكثر من ذلك: فمنذ نشوئها كانت البورجوازية مثقلة بنقيضها: الرأسماليون لا يمكن أن يوجدوا بدون اجراء، وبالمستوى ذاته الذي كان

---

(2) حسب نظرية جان جاك روسو كان الناس يعيشون أصلاً في وضع بدائي إذ جميعهم متساوون. ظهور الملكية الخاص وتطور عدم المساواة في الثروة، حددا «انتقال الناس من الحالة البدائية الى المجتمع»، وأديا الى تشكيل الدولة القائمة على العقد الاجتماعي. غير أن تطور عدم المساواة السياسية قد أدى في ما بعد إلى خرق العقد الاجتماعي وظهور وضع بدائي جديد يقتضي القضاء عليه من قبل دولة العقل القائمة على عقد اجتماعي جديد. (الناشر).

به معلم الحرفة في جمعيات[3] في القرون الوسطى يتطور إلى بورجوازي حديث، كان الصانع الحرفي والمياوم الحر يتحولان إلى بروليتاريين. ولئن تمكنت البورجوازية بالإجمال أن تزعم بأنها تمثل كذلك، في النضال ضد النبلاء، مصالح مختلف الطبقات العاملة في ذلك العصر، فقد ظهرت، مع كل حركة بورجوازية كبيرة، حركات مستقلة لتلك الطبقة التي كانت السلف الأكثر أو الأقل تطوراً للبروليتاريا الحديثة. وهكذا ظهر في عهد الإصلاح وحرب الفلاحين بألمانيا، اتجاه اللامعمدانيين[4] وتوماس مونتسر، وفي الثورة الإنكليزية الكبرى، السوائيون، وفي الثورة الفرنسية الكبرى، بابوف Babeuf. إلى جانب رفع تلك الشارات الثورية لطبقة لم تزل بعد جنينية، كانت

---

(3) شكل لتنظيم الحرفة في العهد الاقطاعي.

(4) اللامعمدانيون Anabaptistes ـ كانوا أتباع طائفة دينية نشأت في ألمانيا وسويسرا وهولندا في القرن السادس عشر. خلال حرب الفلاحين 1524 ـ 1525، كان اللامعمدانيون وغالبيتهم من الفلاحين والحرفيين وصغار التجار، يشكلون الجناح الأكثر ثورية للحركة التي كان يتزعمها توماس مونتسر Thomas Munzer. رفضوا تقليد تعميد الأطفال لأنه ليس وارداً في الإنجيل. (الناشر).

هناك تنظيرات متوافقة معها: في القرنين السادس عشر والسابع عشر أوصاف خيالية لمجتمع مثالي[5]، في القرن الثامن عشر، نظريات شيوعية صريحة (موريللي وبيبلي Morelly, Bably) ولم تبق المطالبة بالمساواة مقتصرة على الحقوق السياسية، بل كان عليها أن تتعداها إلى الوضع الاجتماعي للأفراد، فكان لا بد من تجاوز إلغاء الامتيازات الطبقية، إلى القضاء على الفوارق الطبقية نفسها. وكان الوجه الأول للمذهب الجديد شيوعية متنسكة، على صورة إسبرطة ومثالها. ثم جاء الطوباويون الثلاثة الكبار: سان سيمون Saint-Simon الذي لا يزال الميل البورجوازي عنده يحتفظ ببعض الوزن إلى جانب المنحى البروليتاري وفورييه وأوين Fourier, Owen، وقد طور هذا الأخير في موطن الإنتاج الرأسمالي الأكثر تطوراً وتحت تأثير التناقضات التي يسببها، اقتراحاته في إزالة الفوارق الطبقية تطويراً متسقاً، بالاستناد مباشرة إلى المادية الفرنسية.

---

(5) تلميح الى أعمال ممثلي الشيوعية الطوباوية: توماس مور Thomas More (الطوباوية، ظهر عام 1516) وتوماس كامبانيلا Thomas Companella (مدينة الشمس، 1623). (الناشر).

ثلاثتهم تجمعهم أرضية مشتركة، هي أنهم لا يبرزون كممثلين لمصالح البروليتاريا التي أنجبها التاريخ في غضون ذلك. فهم كفلاسفة عصر الأنوار يريدون أن يحرروا لا طبقة معينة وحدها، بل البشرية جمعاء، ومثلهم يريدون اقامة مملكة العقل والعدالة الأبدية، غير أن مملكتهم تفصلها هوة عميقة عن مملكة فلاسفة التنوير. كما أن العالم البورجوازي نفسه، المنظم وفقاً لمبادىء أولئك الفلاسفة، مغاير للعقل والعدالة، ولهذا عليه أن يدان ويوضع في سلة واحدة مع الاقطاع وكل الأوضاع الاجتماعية السابقة. ولئن لم يحكم العقل والعدالة الفعليان العالم حتى الآن، فلأنهما لم يكتشفا بعد بشكل صحيح. لقد كان ينقص بالضبط: الفرد العبقري الذي ظهر الآن وتبين الحقيقة. وكونه قد جاء الآن والحقيقة قد اكتشفت الآن بالذات، ليس ناتجاً بالضرورة عن ترابط التطور التاريخي كحدث حتمي، بل إنه مجرد صدفة سعيدة. فالفرد العبقري كان يمكن أن يولد قبل 500 سنة ويوفر على البشرية 500 سنة من الضياع والنضالات والآلام.

لقد رأينا كيف كان فلاسفة القرن الثامن عشر

الفرنسيون، الممهدون[6] للثورة، يحتكمون فقط إلى العقل في كل ما كان قائماً. كان ينبغي إقامة دولة رشيدة ومجتمع رشيد، وكل ما يناقض العقل السرمدي ينبغي القضاء عليه بلا رحمة. ورأينا كذلك أن هذا العقل السرمدي لم يكن في الحقيقة سوى الفهم الممثل لمواطن الطبقة المتوسطة الذي كان يتطور في ذلك الوقت بالذات إلى بورجوازي. غير أنه عندما حققت الثورة الفرنسية مجتمع العقل ودولة العقل هذين، فإن المؤسسات الجديدة أياً كانت عقلانيتها بالنسبة للظروف السالفة، لم تبد قط معقولة بصورة مطلقة. فدولة العقل قد أفلست كلياً. ووجد العقل الاجتماعي لروسو تحقيقه في عهد الإرهاب[7]،

---

(6) إشارة الى «الممهدين الحقيقيين» (Levellers) أو «الحفارين» (Diggers): كانوا يمثلون اليسار المتطرف خلال الثورة البورجوازية الإنكليزية في القرن السابع عشر. أما الممهدون الذين كانوا يعبرون عن مصالح الفئات الفقيرة في الريف والمدينة، فكانوا يطالبون بإلغاء الملكية الخاصة للأرض، ويروجون أفكاراً شيوعية، المساواة البدائية ويسعون لتطبيقها بحراثة الأراضي المشتركة جماعياً. (الناشر).

(7) عصر الإرهاب، فترة ديكتاتورية اليعاقبة الديموقراطية الثورية (حزيران 1793 ـ تموز 1794). ورداً على إرهاب الجيرونديين والملكيين المعادي للثورة، لجأ اليعاقبة الى الإرهاب الثوري.

وللتخلص من ذلك، لجأت البورجوازية التي فقدت الثقة بقدرتها السياسية الخاصة، إلى إفساد حكومة المديرين(8)، باديء الأمر والاحتماء بالطغيان النابليوني في نهاية الأمر. وتحول السلام الأبدي الذي كان موعوداً به إلى حرب فتوحات لا نهاية لها. مجتمع العقل لم يشهد مصيراً أفضل، فبدلاً من أن يحل التعارض بين الأغنياء والفقراء لمصلحة الرفاه العام، ازداد تفاقماً من جراء إلغاء امتيازات الجمعيات الحرفية وغيرها التي كانت ترقعه، وكذلك المؤسسات الكنسية الخيرية التي كانت تلطف من حدته. وما إن صار «تحرير الملكية» من أغلال الاقطاعية، أمراً واقعاً حتى كان بالنسبة للبورجوازي الصغير والفلاح الصغير بمثابة حرية بيع الملكية الصغيرة التي سحقتها المزاحمة الجبارة للرأسمال الكبير والملكية العقارية الكبيرة، وحرية بيعها إلى أولئك الأسياد الأقوياء بالذات.

---

(8) كانت تضم خمسة مديرين، منهم واحد كان يستبدل سنوياً عن طريق الانتخاب، هيئة إدارية تابعة للسلطة التنفيذية في فرنسا تشكلت حسب دستور 1795 بعد سقوط دكتاتورية اليعاقبة الثورية، استمرت حتى الانقلاب البونابرتي عام 1799، مارست نظاماً ارهابياً ضد القوى الديموقراطية ودافعت عن مصالح البورجوازية الكبيرة. (الناشر).

وهكذا تحول «التحرير» هذا بالنسبة للبورجوازي الصغير والفلاح الصغير إلى تحرر من الملكية. وجعل انطلاق الصناعة على أساس رأسمالي من فقر الجماهير العمالية وبؤسها شرطاً لحياة المجتمع. وبشكل مطرد غدا الدفع نقداً، حسب تعبير كارلايل، الرابطة الوحيدة للمجتمع. وارتفع عدد الجرائم عاماً بعد آخر. وإذا كان قد قضي على الرذائل الاقطاعية التي كانت في ما مضى تنتشر بلا حياء في وضح النهار أو على الأقل قد دفع بها مؤقتاً إلى المقام الثاني، فإن الرذائل البورجوازية التي كانت تنمو في السر حتى الآن، قد أفرطت في الازدهار. وتحولت التجارة أكثر فأكثر إلى عملية احتيال. وتجسد «إخاء» «الشعار الثوري»[9]، في مشاكسات المزاحمة وحسدها. وأخلى الاضطهاد العنيف مكانه للرشوة، وأخلى السيف، بوصفه الرافعة الأولى للسلطة الاجتماعية، مكانه للمال. وانتقل الحق بالليلة الأولى[10] من الأسياد الاقطاعيين إلى

---

(9) تلميح الى شعار الثورة الفرنسية 1789: «حرية، مساواة، إخاء!». (الناشر).

(10) هذا «الحق» كان يتمتع به الاقطاعيون، وهو يقضي بأن تمضي الزوجة ليلتها الأولى في فراش الاقطاعي. (الناشر).

الصناعيين البورجوازيين. وانتشرت الدعارة بشكل لم يسبق له مثيل. والزواج نفسه، الذي بقي كما في السابق شكلاً معترفاً به شرعياً وغطاءً رسمياً للدعارة، اكتمل باستفحال أعمال الزنى. وباختصار، بدت المؤسسات الاجتماعية والسياسية التي أقامها «انتصار العقل»، بالمقارنة مع وعود فلاسفة الأنوار الطنانة، مسيخاً مخيباً للآمال بشكل مرير. ولم يكن يخيس سوى أناس يتحققون من تلك الخيبة. وظهر هؤلاء مع بدء القرن الجديد. ففي عام 1802 ظهرت رسائل جنيف، لسان سيمون، وفي عام 1808 صدر أول عمل لفورييه رغم أن أساس نظريته يعود إلى عام 1799، وفي أول كانون الثاني 1800 تسلم روبرت أوون ادارة نيو لانارك[11].

---

(11) رسائل جنيف ـ «رسائل مواطن من جنيف الى معاصريه»، أول عمل لسان سيمون، كتب عام 1802 في جنيف، ونشر في باريس عام 1803 تحت اسم مستعار ودون الاشارة الى مكان الاصدار وزمانه.
ـ أول عمل كبير لفورييه، كان «نظريات الحركات الأربع والمصائر العامة..» الذي كتب في أولى أعوام القرن التاسع عشر، «Théorie des quatres mouvements et des destinées générales...».
ونشر في ليون تحت اسم مستعار عام 1808، على صفحة العنوان أشير الى مدينة لايبزيغ كمركز للاصدار. =

لكن في ذلك الوقت كان نمط الإنتاج الرأسمالي، والتناحر بين البورجوازية والبروليتاريا لا يزالان محدودي النمو. ولم تكن الصناعة الكبرى، التي نشأت تواً في انكلترا معروفة بعد في فرنسا. والحال أن الصناعة الكبرى وحدها هي التي، من جهة، تنمي النزاعات التي تجعل من قلب نمط الإنتاج، وإلغاء طابعه الرأسمالي، ضرورة لازبة ـ وهذه النزاعات لا تقتصر على ما تولده هي من طبقات، بل تشمل كذلك النزاعات بين القوى المنتجة وأشكال التبادل التي تخلقها ـ وهي (الصناعة الكبرى) وحدها، التي تطور، من جهة أخرى، ضمن تلك القوى المنتجة الجبارة ذاتها ـ وسائل حل تلك النزاعات أيضاً. وإذا كانت النزاعات الناجمة عن النظام الاجتماعي الجديد حوالى عام 1800 هي نفسها لا تزال في طور النشوء، فكم بالحري وسائل حلها؟. وإذا كانت جماهير باريس المعدمة قد تمكنت، في عهد الإرهاب، من انتزاع السيطرة إلى حين، وبالتالي من إيصال الثورة البورجوازية إلى الانتصار على البورجوازية نفسها، فإنها لم تفعل سوى أن

= ـ نيو لانارك ـ معمل لحياكة القطن بالقرب من مدينة لانارك السكوتلندية، تأسس عام 1784 مع حي سكني صغير. (الناشر).

برهنت على استحالة استمرار السيطرة تلك في ظروف ذلك العصر. أما البروليتاريا التي لا تزال الآن بادئة بالتميز، كنواة لطبقة جديدة، عن الجماهير المعدمة، فكانت حينذاك عاجزة بوجه مطلق عن ممارسة عمل سياسي مستقل، وظهرت كفئة معذبة، وكانت في أحسن الأحوال وبسبب عجزها عن حل أمرها بنفسها، بحاجة إلى تلقي مساعدة خارجية، من فوق.

هذا الوضع التاريخي كان يتحكم أيضاً في مؤسسي الاشتراكية، إذ إن عدم نضج الإنتاج الرأسمالي وعدم نضج الوضع الطبقي، قابلهما عدم نضج نظري. أما حل المشكلات الاجتماعية الذي ما زال متخفياً في العلاقات الاقتصادية الجنينية، فكان ينبغي أن ينبثق من الدماغ. والمجتمع لم يكن يقدم سوى أوضاع غير سوية كانت ازالتها من مهمات العقل المفكر. لذا كان لا بد من ابتكار نظام اجتماعي جديد، أكثر كمالاً، وفرضه على المجتمع من الخارج عن طريق الدعاية، وإذا أمكن عبر تجارب نموذجية. تلك الأنظمة الاجتماعية الجديدة كان محكوماً عليها سلفاً بالطوباوية. وبقدر ما كانت تغوص في التفاصيل، كانت تضيع في الوهم المطبق.

أما وقد ثبت ذلك فلن نتوقف لحظة واحدة بعد عند

هذا الجانب الذي ينتمي الآن برمته إلى الماضي. وبوسعنا أن نترك ذلك لتجار الأدب الرخيص لاستخراج فذلكات أضحت اليوم مسلية، فلندعهم يبرزون تفوق ذهنهم إزاء مثل تلك «الحماقات». أما نحن فنفضل التمتع بالأفكار العبقرية وببذورها التي تطل برأسها في كل مكان من تحت الغطاء الوهمي والتي يتعامى عنها ضيقو الأفق.

كان سان سيمون ابن الثورة الفرنسية الكبرى، ولم يكن بعد قد بلغ الثلاثين عندما اندلعت الثورة، وقد كانت انتصاراً للرتبة الثالثة، أي لسواد جمهور الأمة الناشط في الإنتاج والتجارة، على النخب الممتازة البطّالة إلى حينه: (النبلاء والاكليروس). بيد أن انتصار الرتبة الثالثة، سرعان ما تبين أنه ليس سوى انتصار قسم صغير من هذه الرتبة، إذ اقتصر على الظفر بالسلطة السياسية من قبل الفئة المتميزة اجتماعياً في هذه الرتبة بالذات: أي البورجوازية المالكة. إن البورجوازية هذه، والحق يقال، قد نمت أيضاً بسرعة خلال الثورة، بفضل المضاربة على عقارات النبلاء والكنيسة، المصادرة فالمبيعة، وأيضاً بفضل خداع الأمة في مسألة الامدادات العسكرية. إن سيطرة أولئك المخادعين هي التي جرت فرنسا والثورة في ظل حكومة الإدارة، إلى شفير الدمار وأعطت بذلك نابوليون مبرراً

لانقلابه. وهكذا اتخذ التعارض بين الرتبة الثالثة والأنصبة الممتازة، في تفكير سان سيمون شكل التعارض بين «عاملين» و «بطّالة». ولم يكن البطّالة فقط أصحاب الامتيازات القدامى، بل أيضاً جميع أولئك الذين كانوا يعيشون على الريع دون المشاركة في الإنتاج والتجارة. ولم يكن «العاملون» الأجراء وحسب، بل وأيضاً الصناعيين والتجار وأصحاب البنوك. ولقد كان واضحاً أن البطّالة قد فقدوا القدرة على الإدارة الفكرية والسيطرة السياسية، وهذا ما تثبت نهائياً بفعل الثورة. أما أن لا يكون المعدمون قد تمتعوا بتلك المقدرة، فإن هذه النقطة قد بدت لسان سيمون مبرهنة، بفعل تجارب العهد الإرهابي. فمن ذا الذي كان عليه والحال هذه أن يقود ويسود؟ في رأي سان سيمون، هما العلم والصناعة اللذان سيوحد بينهما رابط ديني جديد من شأنه استعادة وحدة التصورات الدينية التي تفككت منذ حركة الإصلاح، وذلك بشكل «مسيحية جديدة» صوفية بالضرورة قائمة على مراتبية صارمة. ولكن العلم إنما هو العلماء، والصناعة إنما هي بالدرجة الأولى البورجوازيون النشطون من صناعيين وتجار وأصحاب بنوك. وصحيح أن أولئك البورجوازيين كان عليهم أن يتحولوا إلى نوع من الموظفين الرسميين والى

تقاة في المجتمع، لكنه كان عليهم أيضاً أن يحتفظوا إزاء العمال بموقع الإمرة، والامتياز الاقتصادي. وكان لا بد أن نطلب من أصحاب البنود خاصة، تنظيم مجمل الإنتاج الاجتماعي عن طريق تنظيم الاعتمادات. هذا التصور كان يطابق تماماً زمناً في فرنسا كانت فيه الصناعة الكبرى ومعها التعارض بين البورجوازية والبروليتاريا ما تزال في طور الولادة فقط. لكن ثمة نقطة ركز عليها سان سيمون بصفة خاصة: أن ما يهمه في كل مكان وزمان هو بالدرجة الأولى مصير «الطبقة الأكثر عدداً والأشد فقراً».

وقد سبق لسان سيمون أن طرح في رسائل جنيف مبدأ أنه «ينبغي لجميع الناس أن يعملوا». وهو إذ يدرك، في المؤلف ذاته، أن الإرهاب في فرنسا كان لسيطرة الجماهير المعدمة. «يهتف بهم: أنظروا ما حل بفرنسا عندما سيطر رفاقكم هناك؟ لقد تسببوا بالمجاعة»[12]. بيد أن تصور الثورة الفرنسية على أنها ليست سوى صراع طبقي بين النبلاء والبورجوازية والمعدمين، كان عام 1802 من أكثر

---

(12) هاتان العبارتان مقتبستان من رسالة سان سيمون الثانية، رسائل من مواطن في جنيف الى معاصريه، وهما واردتان في كتاب هوبار Huppard «سان سيمون..» ص 142 و125 (الطبعة الألمانية).

الاكتشافات عبقرية. وهو يعلن في عام 1816 أن السياسة هي علم الإنتاج ويتنبأ بالانحلال الكامل للسياسة في الاقتصاد(13). واذا كانت فكرة أن الوضع الاقتصادي هو قاعدة المؤسسات السياسية لا تظهر هنا إلا كبذرة فإن تحول حكم الناس سياسياً إلى إدارة للأشياء والى قيادة لعمليات الإنتاج، أي إن فكرة «الغاء الدولة» إذن، التي أثيرت حولها أخيراً ضجة كبيرة، تكون قد ظهرت هنا بوضوح. وبمثل هذا السبق على معاصريه يعلن ـ سان سيمون ـ عام 1814، فوراً بعد دخول الحلفاء إلى

---

(13) إشارة الى رسالة سان سيمون الثانية «مراسلات سياسية وفلسفية»، مجموعة من كتاب:

«Correspondances politiques et philosophiques». Lettres de Saint-Simon à un Américan.

صدر عام 1817 في باريس بعنوان «الصناعة، أو نقاشات سياسية أدبية وفلسفية، في مصلحة كل الناس المنصرفين الى أعمال مفيدة ومستقلة».

«L'industrie, ou discussions politiques, morales et philosophiques. Dans l'intérêt de tous les hommes livrés à des travaux utiles et indépendants».

في كتاب هوبار «سان سيمون»، ورد عرض لهذا التصور في ص 155 ـ 157. (الناشر).

باريس، وأيضاً عام 1815 أثناء حرب المئة يوم[14]، أن تحالف فرنسا مع بريطانيا، وعلى الخط الثاني: تحالف كلا البلدين مع ألمانيا، هما ضمانة التطور المزدهر وسلام أوروبا[15]. ولقد كان تبشير الفرنسيين عام 1815

---

(14) مئة يوم ـ فترة حكم نابليون الأول بين 20 آذار 1815 عندما دخل نابليون باريس عائداً من جزيرة ألبا و28 حزيران 1815 عندما اضطر للاستقالة مرة أخرى بعد هزيمته في واترلو. (الناشر).

(15) يستند إنجلز الى عملين كتبهما سان سيمون وتلميذه أوغسطين تييري (1795 ـ 1856) هما «في إعادة تنظيم المجتمع الأوروبي أو في ضرورة ووسائل جمع الشعوب في أوروبا، في كيان سياسي واحد، مع احتفاظ كل منها باستقلاله الوطني» (باريس 1814) «De la réorganisation de la société européenne ou de la nécessité et des moyens de rassembler les peuples de l'Europe en un seul».

و«رأي حول الإجراءات الواجب اتخاذها ضد ائتلاف 1815». (باريس 1815).

«Opinions sur les mesures à prendre contre la coalition de 1815.

في كتاب هوبار «سان سيمون» موجز من العمل الأول على الصفحات 149 ـ 154، وعرض للعملين ص 68 ـ 76. دخول الحلفاء ـ في 21 آذار 1814 دخلت باريس قوات الائتلاف ضد نابليون (بروسيا، النمسا، انكلترا، روسيا ودول أخرى). فحطمت الامبراطورية واضطر نابليون الى الاستقالة، ونفي الى جزيرة البا.

بالتحالف مع منتصري واترلو يتطلب بالفعل إقداماً بقدر ما يتطلب بعد نظر تاريخي.

وإذا كنا نجد لدى سان سيمون سعة رؤى خارقة جعلت «تقريباً» كل أفكار الاشتراكيين اللاحقين غير الاقتصادية الصرف متضمنة في باكورة فكره، فإننا نرى لدى فورييه، نقداً للأوضاع الاجتماعية القائمة، نقداً لا يقل نفاذاً عن الحدة الفرنسية الأصيلة. ففورييه يحاسب البورجوازية على كلامها، وكذلك أنبياءها المتحمسين في ما قبل الثورة ومتملقيها المنتفعين في ما بعد الثورة، ويفضح بلا رحمة البؤس المادي والأخلاقي للعالم البورجوازي ويقارنه بوعود فلاسفة الأنوار المعسولة عن المجتمع الذي سيسوده العقل وحده، والحضارة التي ستوفر السعادة الكونية والكمال البشري غير المحدود، فضلاً عن التعابير المنمقة لايديولوجيي البورجوازية من معاصريه. كما يبين كيف أن الحقيقة الأكثر تعاسة تتوافق في كل مكان مع الكلام الأكثر فصاحة، ويصب سخريته اللاذعة على هذا الإفلاس الكلامي الذي لا يداوى. وفورييه ليس بناقد وحسب. فطبيعته المرحة أبداً تجعل منه هجاء، لا بل أحد كبار هجائي كل الأزمنة..

وهو يصف بقدرة ومرح، المضاربة الهوجاء التي تزدهر مع انحدار الثورة. اضافة إلى الذهنية الدكانية التي شملت

كل التجارة الفرنسية لذلك الوقت. وأكثر براعة أيضاً هو انتقاده للشكل الذي تعطيه البورجوازية للعلاقات الجنسية ولوضع المرأة في المجتمع البورجوازي. إنه أول من أعلن أن درجة تحرر المرأة، في مجتمع ما، هي المقياس الطبيعي للتحرر العام[16]. لكن عظمته أكثر ما تتجلى في تصوره لتاريخ المجتمع حيث يقسم مجمل تطوره الماضي إلى أربع مراحل: الهمجية والبربرية والبطريركية[17] والمدنية، وهذه الأخيرة تنطبق على ما يسمى الآن بالمجتمع البورجوازي، أي على النظام الاجتماعي الذي تطور منذ القرن السادس عشر، ويبين، فورييه «أن النظام

---

(16) هذه الأفكار سبق لفورييه أن طورها في «نظرية الحركات الأربع...»، وذلك في الموضوعة التالية: «أن التقدم الاجتماعي وتقلبات العصر يماشيان تحرر المرأة المتقدم، وانهيار النظام الاجتماعي يؤدي بالمقابل إلى إضعاف حرية المرأة». ويستخلص فورييه «أن توسيع حقوق المرأة هو المبدأ الأساسي لكل تقدم اجتماعي». راجع شارل فورييه، المؤلفات الكاملة، oeuvres complètes المجلد الأول، باريس 1841، ص 195 و196. (الناشر).

(17) البطريركية في علم السلالات البشرية ـ الوضع المميز للأب رب العائلة الذي يعود إليه الأمر والنهي. (الناشر).

المتمدن يمنح كلاً من الرذائل التي تتعاطاها البربرية بسذاجة، شكلاً معقداً وملتبساً ومرائياً»، وأن المدنية تتحرك في حلقة مفرغة وسط تناقضات تعيد إنتاجها باستمرار، دون التمكن من تجاوزها، بحيث أنها تتوصل دائماً إلى عكس ما تريد بلوغه أو تدعي الرغبة في بلوغه[18]، بحيث أنه مثلاً «في المدنية يتولد الفقر من الوفرة نفسها».

---

(18) راجع شارل فورييه «نظرية الوحدة الشاملة»،
«Théorie du l'unité universelle»
المجلدان الأول والرابع، المؤلفات الكاملة، oeuvres complètes المجلد الثاني، باريس 1843، ص 78 ـ 79 والمجلد الخامس، باريس 1841، ص 213 ـ 214.
حول «الحلقة المفرغة» التي تتحرك داخلها الحضارة، راجع شارل فورييه،
«Le nouveau monde industriel et sociétaire, ou invention de procédé d'industrie attrayante et naturelle distribuée en séries passionnées».
في المؤلفات الكاملة، oeuvres complètes المجلد 26، باريس 1845، ص 27 ـ 46، 390.
الإصدار الأول لهذا المؤلف ظهر في باريس عام 1829. راجع أيضاً شارل فورييه، المؤلفات الكاملة، المجلد الأول، باريس 1843، ص 202. (الناشر).

وكما نرى، فإن الديالكتيك طيِّع بين يدي فورييه طواعيته عند معاصره هيغل. وبديالكتيك مماثل، يظهر أن كل مرحلة تاريخية، خلافاً للثرثرة عن الكمال البشري غير المحدود، لها فرع صاعد، كما لها فرع هابط. وينطبق هذا التصور على مستقبل البشرية بأسرها. وكما أن كانط أدخل النهاية المقبلة للأرض في العلوم الطبيعية، كذلك أدخل فورييه النهاية المقبلة للبشرية في دراسة التاريخ.

وبينما كانت أعاصير الثورة في فرنسا تعصف بالبلاد، كان يتم في انكلترا انقلاب أقل صخباً، ولكن ليس بأقل قوة. فالبخار والألتية الجديدة حولا المانيفاتورة إلى صناعة كبرى حديثة، وثورا بذلك كل أسس المجتمع البورجوازي. وتحول تلكؤ مرحلة المانيفاتورة إلى اضطرام مرحلة الإنتاج العاصف. وبسرعة متنامية باستمرار أخذ المجتمع ينقسم إلى رأسماليين كبار وبروليتاريين معدمين، يعيش بينهم الآن، بدل الطبقة المتوسطة المستقرة سابقاً، جمهور متقلقل من الحرفيين وصغار التجار، يقاسون حياة غير آمنة ويشكلون الجزء الأكثر تقلباً بين السكان. ورغم أن نمط الإنتاج الجديد كان لا يزال في بداية فرعه

الصاعد، وأنه كان لا يزال نمط الإنتاج السوي والوحيد الممكن في تلك الظروف، إلا أنه كان يولد أوضاعاً غير سوية صارخة: كتكديس السكان المهجرين في أحقر أكواخ المدن الكبرى، وتفكك جميع الأواصر التقليدية والتبعية البطريركية للعائلة، ورفع وتيرة العمل الاضافي إلى حد مرعب ولا سيما عمل النساء والأطفال، وشمول الحط من معنويات الطبقة العاملة الملقى بها فجأة في ظروف جديدة تماماً، بانتقالها من الريف إلى المدينة، من الزراعة إلى الصناعة، من أوضاع مستقرة إلى أوضاع تتقلب كل يوم. عندئذ ظهر صناعي في التاسعة والعشرين من العمر بهيئة مصلح، رجل يجمع إلى بساطة الطفولة ونبلها، قدرة على قيادة الناس قل مثيلها. إنه روبرت أوين الذي كان قد استوعب مذهب فلاسفة عصر الأنوار الماديين، المذهب الذي يرى أن طبع الإنسان هو، من جهة أولى نتاج تكوينه الجسماني الذي ولد عليه، وهو، من جهة ثانية نتاج الظروف التي تحيط بالإنسان طوال حياته ولا سيما أثناء فترة تكونه ونموه. وفي حين كان معظم أبناء طبقته لا يرون في الثورة الصناعية سوى البلبلة والفوضى حيث

الفرصة مؤاتية للاصطياد في الماء العكر وتحقيق الاثراء السريع، رأى أوين فيها فرصة لتطبيق نظريته المحببة، ولإدخال النظام في الفوضى. فقد سبق له أن جرب ذلك بنجاح في مانشستر، كقائد لخمسمئة شغيل في أحد المعامل، ومن عام 1800 إلى 1829 تولى كشريك إدارة معمل نيو لانارك الكبير لغزل القطن في اسكتلندا، وقد فعل ذلك بذات الذهنية، إنما بحرية تصرف أكبر ونجاح أكسبه شهرة أوروبية. فقد حول أوين سكاناً ارتفع عددهم تدريجياً إلى 2500 نسمة، يتحدرون في الأصل من أكثر العناصر اختلاطاً، ومعظمهم قد انهارت معنوياته، حولهم إلى جالية نموذجية لا تعرف السكر ولا الشرطة ولا القضاء الجزائي ولا الدعاوى، ولا الجمعيات الخيرية أو الحاجة إلى الإحسان. وتم له ذلك فقط بوضعه الناس في ظروف أكثر لياقة بكرامة الإنسان ولا سيما توفير تربية متقنة للناشئة. وكان صاحب فكرة مدارس الأطفال الصغار وأول من اعتمدها. ففي عامهم الثاني كان الأطفال يترددون إلى المدرسة حيث يلهون إلى درجة يصعب معها العودة بهم إلى المنزل. وفي حين كان مزاحموه يشغلون

العمال 13 ـ 14 ساعة في اليوم، كان يعمل في نيو لانارك لعشر ساعات ونصف ساعة فقط. وعندما شلت أزمة القطن العمل طوال أربعة شهور، استمر العمال المتعطلون في تقاضي أجرهم كاملاً. وهذا لم يمنع المؤسسة من أن تضاعف قيمتها وأكثر، وأن توفر لأصحابها حتى النهاية أرباحاً طائلة.

بيد أن كل ذلك لم يكن يرضي أوين. فالمعيشة التي أمنها لعماله كانت بنظره لا تزال بعيدة عن أن تكون جديرة بالإنسان؛ «الناس كانوا عبيداً لي». فالظروف الملائمة نسبياً التي وضعهم فيها كانت ما تزال بعيدة عن أن تسمح بتطور الطبع والذهن تطوراً كاملاً وعقلانياً، وبالأحرى أبعد من أن تتيح النشاط الحيوي الحر.

«ومع ذلك، كان القسم العامل من أولئك الـ 2500 شخص ينتج كمية من الثروة الحقيقية للمجتمع تعادل ما كان يمكن أن ينتجه 600 ألف شخص قبل ذلك بنصف قرن تقريباً. وكنت أتساءل: ماذا يحل بالفارق بين الثروة المستهلكة من قبل 2500 شخص وتلك التي كان لا بد منها لاستهلاك الـ 600 ألف؟». الجواب كان واضحاً.

الثروة كانت مستخدمة لتأمين فائدة خمسة بالمئة لأصحاب المؤسسة على رساميلهم الموظفة، أضف إلى ذلك أرباحاً تزيد على 300 ألف جنيه استرليني (6 ملايين مارك).

وما كان ينطبق على نيو لانارك كان ينطبق أيضاً وبقدر أكبر على كل معامل انكلترا.

«فلولا هذه الثروة الجديدة التي وفرتها الآلات لما أمكن خوض الحروب للإطاحة بنابليون والإبقاء على مبادىء المجتمع الأريستقراطية. ومع ذلك فقد كانت تلك القوة الجديدة من صنع الطبقة العاملة»[19]. واليها ينبغي أن تعود اذن تلك الثمار أيضاً. ورأى أوين أن القوى المنتجة الجديدة الهائلة التي لم تكن تستخدم إلى الآن سوى لإغناء القلة واستعباد الجماهير، تصلح كأساس لتنظيم اجتماعي جديد، ومؤهلة لأن لا تعمل إلّا من أجل الرفاه العام، كملكية عامة للجميع.

---

(19) هذه الاستشهادات مأخوذة من «الثورة في التفكير والممارسة». «The Revolution in Mind and Practice» وهي مذكرة وجهت إلى جميع «الجمهوريين الحمر والشيوعيين والاشتراكيين في أوروبا»، الى حكومة 1848 الفرنسية المؤقتة وكذلك الى الملكة فكتوريا ومستشاريها المسؤولين. (الملاحظة لإنجلز).

من هذا التفكير الصرف لرجل الأعمال، والذي هو، إن جاز القول، نتيجة حساب تجاري، ولدت الشيوعية الأوينية. وهي تحتفظ حتى الآن بهذا الطابع العملي نفسه. وهكذا اقترح أوين عام 1823، إزالة البؤس عن ايرلندا بواسطة مستوطنات شيوعية، وضم إلى مشروعه تقديراً كاملاً لنفقات الإنشاء والمصاريف السنوية والأرباح المتوقعة أيضاً[20] وقد وضع أوين مشروعه النهائي للمستقبل، بما فيه الرؤية الأفقية والعمودية والشاملة، بكل التفاصيل التقنية عن معرفة عميقة بالأمور، إلى حد أن الطريقة الأوينية لإصلاح المجتمع، إذا ما سلمنا بها، لا تدع مجالاً لقول الكثير ضد تفاصيلها بالذات حتى من وجهة النظر المتخصصة.

---

(20) راجع روبرت أوين في «تقرير عن الأحداث في العديد من الاجتماعات العامة المنعقدة في دبلن في 18 آذار ـ 12 نيسان، 19 نيسان و2 أيار، دبلن 1823. ص 110.

heid in Dublin».

«Report of the proceedings of the several public meetings

(الناشر).

وكان الانتقال إلى الشيوعية نقطة تحول في حياة أوين. وطالما كان يكتفي بدور محب البشر، كان يحصد الغنى والاطراء والسعادة والشهرة، وكان الرجل الأكثر شعبية في أوروبا، وكان يصغي إليه ويثني عليه، ليس زملاؤه فحسب، بل وأيضاً رجال دولة وأمراء. غير أنه عندما تقدم بنظرياته الشيوعية، تبدل كل شيء. ثمة ثلاث عقبات كانت تقطع الطريق على الإصلاح الاجتماعي: الملكية الخاصة، الدين والشكل الحالي للزواج، كان يعرف ما ينتظره لو حمل عليها: ازدراء عام من المجتمع الرسمي وفقدان كل مكانته الاجتماعية. بيد أنه لم يتردد في مهاجمتها بلا هوادة، وحصل ما كان يتوقعه. وعلى أثر طرده من المجتمع الرسمي، وغمره بمؤامرة الصمت الصحفية، وترديه في الفقر من جراء تجاربه الشيوعية الفاشلة في أميركا ـ تلك التجارب التي كلفته كل ثروته ـ توجه مباشرة إلى الطبقة العاملة وتابع العمل في وسطها ثلاثين سنة أخرى. إن جميع الحركات الاجتماعية وكل التقدم الفعلي الذي أنجز في إنكلترا لمصلحة الشغيلة مرتبطة باسم أوين. وهكذا فقد مرر عام 1819، بعد خمس سنوات من الجهود، أول قانون يحد من عمل

النساء والأطفال في المعامل[21]. وهكذا ترأس أول مؤتمر انضمت خلاله تريدنيونات عموم انكلترا إلى اتحاد نقابي موحد[22]. وقد اعتمد كخطوة انتقالية مؤدية إلى تنظيم شيوعي كامل للمجتمع: من جهة، الجمعيات التعاونية (تعاونيات الاستهلاك والإنتاج) التي طالما أثبتت

---

(21) عام 1812، اقترح أوين في اجتماع بفلاسكو جملة إجـراءات لتسهيل أوضاع جميع الأطفال والبالغين العاملين في معامل غزل القطن. وفي عام 1819 أقر البرلمان مشروع القانون الذي بادر اليه أوين بهذا الشأن في حزيران 1815، وبدأ يعمل به كقانون بعد مسخ نقاط أساسية فيه. هذا القانون المعد فقط لمعامل القطن، كان يحظر مثلاً عمل الأطفال دون التاسعة (اقتراح أوين ينص على حظر عمل الأطفال دون العاشرة) ويحدد أوقات عمل الأشخاص دون السادسة عشرة باثنتي عشرة ساعة. أما أوين فكان يرى عدم تجاوز فترة العمل العشر ساعات والنصف. (الناشر).

(22) في تشرين الأول 1833، جرى في لندن برئاسة أوين مؤتمر الشركات التعاونية ونقابات العمال. أسست خلاله الجمعية الوطنية الكبرى لمنتوجات بريطانيا العظمى وايرلندا، البرنامج والقانون الداخلي أقر في شباط 1834. يرى أوين أنه كان على تلك الجمعية أن تأخذ زمام ادارة الإنتاج وتتولى إعادة تنظيم شاملة للمجتمع بالطرق السلمية. لكن تلك الخطة المثالية سرعان ما سقطت. وقد انفرطت الجمعية في آب 1834 أمام المقاومة العنيفة للمجتمع البورجوازي والدولة. (الناشر).

عملياً أن التاجر والصناعي على السواء يشكلان فائضاً لا حاجة له. ومن جهة ثانية، أسواق العمل[23]، وهي منشآت لتبادل منتوجات العمل بواسطة عملة ورقية كانت تشكل الوحدة منها ساعة عمل. تلك المنشآت التي مصيرها الفشل بالضرورة، كانت استباقاً كاملاً لبنك التبادل[24]، الذي أنشأه برودون Proudhon فيما بعد، ولم تتميز عنه إلا بواقعة أنها لم تكن تمثل الدواء الشافي لكل الآلام الاجتماعية، بل خطوة أولى فقط نحو تحول المجتمع.

إن أسلوب تصور الطوباويين قد ساد طويلاً أفكار القرن التاسع عشر الاشتراكية ولا يزال يسودها جزئياً. وقد كان

---

(23) أسواق التبادل العادل لمنتوجات العمل

Equitable Labour Exchange Bazaars.

أنشئت من قبل الجمعيات التعاونية للعمال في مختلف المدن البريطانية. أولى تلك الأسواق أنشأها روبرت أوين في لندن، في أيلول 1832، استمرت حتى منتصف 1834. (الناشر).

(24) برودون حاول انشاء بنك للتبادل أثناء ثورة 1848 ـ 1849. أسس في باريس بنك الشعب في 31 كانون الثاني 1849. استمر زهاء شهرين لكن على الورق فقط: «البنك فشل قبل أن يباشر عمله بانتظام» (ماركس). وأقفل في مطلع نيسان. (الناشر).

يلتزم به، حتى فترة قريبة، جميع الاشتراكيين الانكليز والفرنسيين، وإليه تنتسب أيضاً الشيوعية الألمانية السابقة العهد، ومن ضمنها فايتلنغ Weitling. إن الاشتراكية هي، بالنسبة اليهم جميعاً، التعبير عن الحقيقة والعقل والعدالة المطلقة، ويكفي أن نكتشفها حتى تجتاح العالم بفضل قوتها الذاتية. وبما أن الحقيقة المطلقة هي مستقلة عن الزمان والمكان وعن تطور التاريخ البشري، فإن زمان ومكان اكتشافها هما مجرد صدفة. وبناء عليه فإن الحقيقة والعقل والعدالة المطلقة تعود تختلف باختلاف كل من مؤسسي المدارس. وبما أن نوع الحقيقة والعقل والعدالة المطلقة هو خاص بكل منهم ومشروط بفهمه الذاتي، بظروف حياته، بدرجة معارفه وتكون فكره، فالحل الوحيد الممكن لصراع الحقائق المطلق هذا هو في أن تتآلف بعضها ضد بعض. من هذا لا يمكن أن يخرج إلا نوع عادي من الاشتراكية التلفيقية، كتلك التي تسود اليوم أيضاً، في الواقع، عقول معظم العمال الاشتراكيين في فرنسا وانكلترا: خليط يقبل أكبر تشكيلة من المتنوعات بحيث تدخل، بأضعف ما فيها، الملاحظات النقدية لمختلف مؤسسي الشيع ونظرياتهم الاقتصادية وأوصافهم للمجتمع المستقبلي أنه خليط يسهل الحصول عليه، ما دام

كل عنصر فيه يفقد شيئاً فشيئاً على محك الجدال، زواياه الحادة ونتوءاته المميزة، كما تنصقل الحصى في مجرى السيل. . ولأجل تحويل الاشتراكية إلى علم، كان لا بد، بادىء بدء، من وضعها على تربة واقعية.

الديالكتيك

ـ 2 ـ

وفي خلال ذلك نشأت إلى جانب فلسفة القرن الثامن عشر الفرنسية وعلى أثرها، الفلسفة الألمانية الحديثة التي اكتملت مع هيغل. وتكمن جدارتها الكبرى في العودة إلى الديالكتيك كأسمى شكل للفكر. ففلاسفة اليونان القدامى جميعهم كانوا ديالكتيكيين بالولادة وامتياز الطبع، وكان أكثر أدمغتهم موسوعية أرسطوطاليس قد درس أهم أشكال الفكر الديالكتيكي. أما الفلسفة الحديثة فعلى العكس من ذلك وعلى الرغم من أن للديالكتيك فيها ممثلين لامعين (أمثال ديكارت وسبينوزا)، فقد انغمست بشكل متزايد، خاصة تحت التأثير الانكليزي، في ما يسمى بخط التفكير الميتافيزيقي الذي هيمن أيضاً، وبلا استثناء تقريباً، على فرنسيي القرن الثامن عشر وعلى الأقل على أعمالهم

الفلسفية تخصيصاً. وقد كان بمقدورهم، خارج نطاق الفلسفة، أن ينتجوا روائع في الديالكتيك. يكفي أن نذكر «حفيد رامو» لديديرو و «مقال حول أصل التفاوت بين الناس وأسسه» لروسو. ولنشر هنا بإيجاز، إلى الأساسي في هذين المنهجين.

عندما نتفحص الطبيعة أو التاريخ البشري أو نشاطنا الفكري الخاص، فإن أول ما يبدو لنا هو لوحة من التشابك اللامتناهي من العلاقات والتفاعلات حيث لا يبقى شيء على ما كان وكما كان، بل حيث كل شيء يتحرك، يتغير، يتحول ويفنى. نحن نشاهد اذن بادىء الأمر اللوحة كاملة حيث ما تزال التفاصيل غائبة بشكل متفاوت، ونولي اهتماماً أكبر للحركة، لعمليات انتقال الواحد إلى الآخر، وللترابطات أكثر مما نوليه لما يتحرك ويتحول ويترابط. هذا التصور الأصلي الساذج للعالم، لكن الصحيح في جوهره، إنما هو أسلوب فلاسفة اليونان القدامى، الذي كان هيراقليطس أول من عبر عنه: كل شيء كائن وغير كائن، لأن كل شيء يسيل، وكل شيء يتحول باستمرار وصائر وفانٍ. إلا أن هذا التصور، مهما كان يستوعب بشكل صحيح الطابع العام للوحة الإجمالية

للظاهرات، لا يكفي لشرح التفاصيل التي تتكون منها اللوحة الإجمالية. وما دام ليس بمقدورنا شرحها فلن تتكون لدينا فكرة واضحة عن اللوحة الإجمالية. فلأجل التعرف على هذه التفاصيل لا بد لنا من فصلها عن ترابطها الطبيعي أو التاريخي ودراستها، كل واحدة على حدة، حسب خصائصها وأسبابها وتأثيراتها الخاصة، الخ. تلك هي بالدرجة الأولى مهمة العلوم الطبيعية والبحث التاريخي، تلك الفروع البحثية التي، لأسباب أساسية، لم تكن تحتل، لدى الاغريق في المرحلة الكلاسيكية، سوى مركز ثانوي؛ ذلك لأنه كان عليهم قبل كل شيء أن يجمعوا المواد الضرورية لبحوثهم. ينبغي بادىء الأمر أن تجمع إلى حد معين معطيات طبيعية وتاريخية للتمكن من الانتقال إلى الفرز النقدي، إلى المقارنة أو التقسيم إلى أصناف وأجناس.

لذلك فإن بدايات العلم الطبيعي الدقيق لم تتطور إلّا على أيدي اليونان في العهد الإسكندري[1]، وفي ما بعد

---

(1) العهد الاسكندري ـ من زمن البطالة (320 ـ 330ق. م) والسيطرة الرومانية حتى الغزو العربي (العام 30ق .م الى 640 ب .م)،=

على يد العرب في العصور الوسطى. غير أن علم الطبيعة الحقيقي يرقى تاريخه إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حين أخذ يتقدم بسرعة متزايدة باستمرار. إن تجزئة الطبيعة إلى أقسامها المنفردة، وتقسيم العمليات والمواضيع الطبيعية المختلفة إلى أصناف معينة، ومعاينة التركيب الداخلي للأجسام العضوية حسب تنوع أوجهها التشريحية ـ تلك كانت الشروط الأساسية للتقدم الجبار الذي حققته لنا القرون الأربعة الأخيرة في معرفة الطبيعة. لكن هذه الطريقة قد تركت لنا أيضاً عادة أدرك الأشياء والعمليات الطبيعية في انعزالها، خارج الترابط الإجمالي الكبير، وبالتالي ليس في حركتها بل في سكونها، لا كعناصر متغيرة أساساً بل ثابتة، لا في حياتها بل في موتها. وبانتقال هذه الطريقة في النظر، كما حدث ذلك بفضل بيكون ولوك، من علم الطبيعة إلى الفلسفة، أحدثت ضيقاً

= في مدينة الإسكندرية المصرية، مركز الحياة الفكرية في ذلك العصر. وقد شهدت المرحلة الإسكندرية تقدماً كبيراً في علوم كثيرة كالرياضيات (أوقليدوس وأرخميدس)، الجغرافيا، علم الفلك، التشريح، الفيزيولوجيا.

في التفكير الخاص بالقرون الأخيرة، وأوجدت نمط التفكير الميتافيزيقي.

إن الأشياء وانعكاساتها في التفكير، أي المفاهيم، تعد في نظر الميتافيزيقي مواضيع للبحث منفصلة بعضها عن بعض، ينظر إليها واحداً بعد الآخر، وواحداً دون الآخر، ثابتة، جامدة، ومعطاة مرة واحدة والى الأبد. إنه لا يفكر إلا في التضاد بين الأشياء، دون توسط بينها، ويقول «نعم نعم، ولا لا، وما زاد عن ذلك فهو من الشرير»[2]. فالشيء عنده إما أن يكون أو لا يكون، والشيء لا يمكن أن يكون، في وقت واحد، هو ذاته وغيره. الموجب والسالب يتنابذان إطلاقاً. السبب والنتيجة يتعارضان بالشكل الصارم نفسه. واذا كان نمط التفكير هذا يتراءى لنا، لأول وهلة، جد معقول، فذلك لأنه نمط ما نسميه الحس السليم. ومهما كان هذا الصاحب جديراً بالاحترام ما دام قابعاً في كهفه النثري المغلق، فإن الحس السليم ما إن يخرج منه مقتحماً رحاب البحث، حتى يقع في مغامرات مذهلة. وطريقة التفكير الميتافيزيقية، مهما

---

(2) انجيل متى 5/ 37.

وجدت لها ما يبررها أو ما يجـعلها ضرورية في بعض الميادين المتفاوتة سعة وضيقاً، وفقاً لطبيعة الموضوع، ستصطدم دائماً وعاجلاً أم آجلاً بحاجز لا يمكنها تجاوزه، دون أن تصبح ضيقة ومحدودة ومجردة، وتتيه في تناقضات لا حل لها. والسبب في ذلك أنها أمام الأشياء المنفردة تنسى ترابطها، وأمام وجودها تنسى صيرورتها وفناءها، وأمام سكونها تنسى حركتها... فالأشجار تمنعها من رؤية الغابة.

في الحاجات اليومية يمكننا أن نعرف، بكثير من التأكيد، أن حيواناً ما موجود أم غير موجود. لكن حين نضع هذه القضية موضع الدرس المتعمق، نكتشف أنها في بعض الأحيان من أكثر القضايا تعقيداً. والحقوقيون يعرفون ذلك جيداً، فهم الذين يجهدون عبثاً لكشف الحدود المعقولة التي يمكن الانطلاق منها للحكم بأن قتل الطفل في أحشاء أمه جريمة. وكذلك يستحيل تحديد لحظة الموت، لأن علم وظائف الأعضاء يثبت أن الموت ليس حدثاً منفصلاً وفورياً، بل هو عملية تمتد طويلاً في الزمان. وهكذا أيضاً فإن كل كائن عضوي هو ذاته وليس ذاته، في كل لحظة. فهو في كل لحظة يتمثل مواد غريبة

ويفرز أخرى، وفي كل لحظة تموت خلايا من جسمه وتولد فيه خلايا جديدة، وفي فترة ما تطول أو تقصر تتجدد مواد هذا الجسم تجدداً كلياً، تزول القديمة وتحل محلها ذرات مواد أخرى، بحيث أن كل كائن منظم إنما هو نفسه وغيره معاً باستمرار. وكلما راقبنا الأمور بدقة، تبين لنا أن كل قطبي تناقض ما، كالموجب والسالب، يتواصلان بقدر ما يتضادان. أي إن تناقضهما لا يمنع أن تجري بينهما علاقة تداخل متبادل. ومثل ذلك شأن العلاقة بين السبب والنتيجة. إنهما فكرتان لا تشكلان قيمة بذاتيهما، إنما القيمة تكمن في تطبيقهما على الحالات الخاصة المعينة. لكن الحالة الخاصة حين نضعها في مكانها من العلاقة بين العام والخاص، أي في مكانها من سائر الكون، نستطيع أن نراها في وضع تفاعلي شمولي. وفي هذا الموضع التفاعلي يتبادل السبب والنتيجة موقعيهما باستمرار. بمعنى أن الذي يكون سبباً في زمن معين ومكان معين، قد يصبح نتيجة في زمن آخر ومكان آخر معينين، والعكس صحيح.

إن شيئاً من هذه العمليات التفاعلية وهذه المناهج الفكرية لا يدخل في إطار التفكير الميتافيزيقي. أما

الديالكتيك، فهو ـ على العكس ـ يرى إلى الأشياء وانعكاساتها الذهنية، بصورة أساسية في ترابطها وحركتها وصيرورتها، في نشوئها وزوالها. إن تلك العمليات المشار إليها، ليست سوى الدليل على صحة الرؤية الديالكتيكية إلى الأشياء. والطبيعة نفسها هي مجال اختبار الديالكتيك. وينبغي لنا القول بحق، إن العلوم الطبيعية الحديثة هي التي قدمت مجال هذا الاختبار في ما قدمته من مواد وفيرة تغتني كل يوم وتثبت أن الأشياء في الطبيعة تسير، في نهاية الأمر، بصورة ديالكتيكية، وليس ميتافيزيقية وأن الطبيعة لا تتحرك (حركة دائرية رتيبة أبدية)، بل تجتاز تاريخاً فعلياً. وأول من ينبغي أن يذكر هنا، هو داروين الذي وجه الضربة الأقوى إلى المفهوم الميتافيزيقي للطبيعة بإثباته أن كل الطبيعة العضوية الحالية والنباتات والحيوانات وبالتالي أيضاً الإنسان، هي نتاج عملية تطور متواصلة استغرقت ملايين السنين. ولكن بما أن الباحثين العلماء الذين تعلموا أن يفكروا ديالكتيكياً ما زالوا إلى الآن قلة معدودة، فإن الصراع بين النتائج المكتشفة وطريقة التفكير التقليدية يفسر الارتباك الهائل الذي يسود حالياً العلوم الطبيعية النظرية ويقود إلى اليأس معلمين

وتلامذة وكتاباً وقراء على السواء. إن تمثلاً محكماً لمجمل الكون، لتطوره وتطور البشرية وكذلك انعكاس هذا التطور في عقول الناس لا يمكن اذن أن يتحقق إلا بالطريق الديالكتيكي مع الأخذ في الاعتبار دائماً تفاعلات الصيرورة والزوال الكلية والتغيرات إلى الأمام والى الوراء. في هذا الاتجاه سارت الفلسفة الألمانية الحديثة منذ البدء.

فقد بدأ كانط، حياته العلمية بأن أوجد حلاً لثبات منظومة نيوتن الشمسية ولسرمدية وجودها ـ منذ أن تتلقى الدفعة الأولى المزعومة ـ في سيرورة تاريخية: نشوء الشمس والكواكب كافة من كتلة سديمية تدور. وخلص إلى الاستنتاج بأن المنظومة الشمسية ما دامت قد ولدت فستزول بالضرورة يوماً ما. وأثبت لابلاس هذا الرأي بعد نصف قرن بطريقة رياضية. وبعد ذلك بنصف قرن أثبت المرقب الطيفي أنه يوجد في الكون مثل هذه الكتل الغازية المتأججة (السديمية) المتفاوتة كثافة.

لكن الفلسفة الألمانية الحديثة وجدت خاتمتها في سستام هيغل الذي اعتبر، للمرة الأولى ـ وهنا تكمن مأثرته الكبرى ـ أن مجمل عالم الطبيعة والمجتمع

والفكر، هو سيرورة، أي إنه منخرط في حركة ونمو، وتغير وتحول وتطور مستمر، وقام بمحاولات لإثبات الترابط الداخلي لهذه الحركة وذلك التطور. من وجهة النظر هذه لم يعد تاريخ البشرية يتراءى تشابكاً فوضوياً لأعمال عنف عبثية، تدان جميعها أمام محكمة العقل الفلسفي الذي بلغ النضج بحيث يكون من الأفضل نسيانها بأسرع ما يمكن، بل أصبح سيرورة البشرية التطورية ذاتها، ومهمة الفكر الآن اللحاق بالمسيرة المتقدمة ببطء عبر كل المسالك المتعرجة وتبيان منطقها الداخلي عبر كل الأعراض الظاهرية.

أما أن النظام الهيغلي لم يحل تلك المهمة التي طرحها على نفسه، فهذا أمر ليس يعنينا هنا. إنما المهم القول بأن مأثرة هيغل الشهيرة التي كان لها دورها التاريخي، هي في كونه طرح هذه القضية. إن هذه المهمة بالذات واحدة من تلك التي يستحيل أبداً على شخص بمفرده أن يحلها. وبرغم أن هيغل كان مع ـ سان سيمون ـ أكثر أدمغة عصره موسوعية، فقد كان مع ذلك مقيداً، أولاً بسبب الحجم المحدود لمعارفه الخاصة، وثانياً بسبب المدى والعمق المحدودين كذلك لمعارف عصره ونظراته.

لكن ينبغي أن تضاف إلى ذلك حالة ثالثة. لقد كان هيغل مثالياً. معنى ذلك أنه، بدلاً من اعتبار أفكار ذهنه انعكاسات مجردة بشكل أو بآخر للأشياء والعمليات الواقعية، كان على العكس يرى المواضيع وتطورها مجرد نسخ حققتها «الفكرة» الموجودة في مكان ما قبل العالم. وبذلك كان كل شيء واقفاً على رأسه، والترابط الفعلي للعالم مقلوباً كلية. ورغم أن هيغل قد أدرك بعض الترابطات المنفردة بكل صوابية وعبقرية، فإن الأسباب المذكورة تجعل من المحتم أن يتحول التفصيل في أغلب الأحيان إلى ترقيع وتصنع وتلفيق، وباختصار: إلى تحريف الحقيقة. لقد كان سستام هيغل بحد ذاته فعل إجهاض ضخم رغم أنه الأخير من نوعه. وبالفعل فإنه كان دائماً يشكو التناقض المستعصي على الحل في داخله: فمن جهة كانت مصادرته الأساسية هي التصور التاريخي القائل بأن تاريخ البشرية هو سيرورة تطورية ليس بإمكانها، بطبيعتها، أن تلقى خاتمتها الذهنية عن طريق اكتشاف حقيقة مطلقة مزعومة، لكنه، من جهة أخرى، يدعي أنه هو ذو ذروة كمال تلك الحقيقة المطلقة. إن سستامه لمعرفة الطبيعة والتاريخ يكون شاملاً لكل شيء ومنتهياً دفعة واحدة والى

الأبد، إنما يتناقض والقوانين الأساسية للتفكير الديالكتيكي، الأمر الذي لا ينفي بحال، بل يؤكد، على العكس، أن المعرفة المنظمة لمجمل العالم الخارجي قادرة على السير، بخطى جبارة، من جيل إلى جيل.

وما إن يدرك الانحراف الكامل الخاص بالفلسفة المثالية الألمانية الماضية، حتى تتوجب العودة بالضرورة إلى المادية. لكن ـ وذلك ما لا بد من الإشارة إليه ـ عودة إلى مادية القرن الثامن عشر الميتافيزيقية والميكانيكية المحض. وخلافاً لمجرد إدانة كل التاريخ البشري السابق دون استثناء بثورية ساذجة، فإن المادية الحديثة ترى في التاريخ سيرورة لتطور البشرية ومهمتها اكتشاف القوانين المحركة لهذا التطور. وخلافاً لتمثل الطبيعة السائد عند فرنسيي القرن الثامن عشر كما عند هيغل، والذي يعتبر الطبيعة كلاً يبقى مماثلاً لذاته باستمرار، ويتحرك ضمن حلقات ضيقة، مع أجرام سماوية خالدة، حسب تفسير نيوتن ومع أنواع عضوية لا تتغير، حسب قول لينّه، فإن المادية الحديثة تولف بين مجمل التقدم الحديث للعلوم الطبيعية، الذي يرى أن الطبيعة أيضاً لها تاريخها في الزمن، وأن الأجرام السماوية وكذلك الكائنات الحية

المتنوعة القادرة على العيش فيها في ظروف ملائمة، تنشأ وتزول، وأن الأدوار، إن وجدت، تتخذ أبعاداً في غاية الضخامة. وفي كلتا الحالتين تكون المادية، في الأساس، ديالكتيكية، ولا تحتاج إلى أية فلسفة قائمة فوق العلوم الأخرى. وحالما يكون على كل علم خاص أن يستوضح الموقع الذي يحتله ضمن الترابط الإجمالي للأشياء والمعرفة بها، فإن كل علم موضوعه هذا الترابط الاجمالي، يصبح علماً لا حاجة اليه. لذلك لا يبقى من كل الفلسفة القديمة، في وضع مستقل، سوى مذهب التفكير وقوانينه: المنطق الصوري والديالكتيك. وكل ما تبقى ينحل في العلم الوضعي للطبيعة والتاريخ.

وفي حين أن التحول في تصور الطبيعة لم يكن ليحصل إلّا بقدر ما كان يوفره البحث من مواد مناسبة من المعارف الوضعية، كانت بعض الوقائع التاريخية قد فرضت نفسها قبل ذلك بكثير مسجلة انعطافاً حاسماً في تصور التاريخ. ففي عام 1831، حصلت في ليون أول انتفاضة عمالية. ومن 1838 إلى 1842، بلغت أول حركة عمالية وطنية ذروتها وهي حركة الميثاقيين الإنكليز. وانتقل الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية إلى مركز

الصدارة في تاريخ بلدان أوروبا الأكثر تقدماً وذلك بالدرجة نفسها التي كانت تتطور بها هناك الصناعة الكبيرة وسلطة البورجوازية السياسية المنتزعة حديثاً. إن تعاليم الاقتصاد البورجوازي عن تطابق مصالح الرأسمال والعمل وعن التناغم الكلي والرفاه الشعبي العام الناتجين عن المزاحمة الحرة، قد كذبتها الوقائع بحدة متزايدة. ولم يعد بالإمكان دحض كل تلك الوقائع، ولا تجاهل الاشتراكية الفرنسية والانكليزية التي كانت، رغم كل نواقصها، التعبير النظري عن تلك الوقائع. لكن التصور المثالي القديم للتاريخ، الذي لم يكن قد تم تجاوزه بعد، لم يكن يعرف لا صراعات طبقية قائمة على المصالح المادية ولا حتى مصالح مادية، ولم ينظر فيه إلى الإنتاج وكل العلاقات الاقتصادية إلّا نظرة جانبية كعناصر ثانوية لـ «تاريخ الحضارة».

لقد قضت الوقائع الجديدة بإخضاع كل تاريخ الماضي لبحث جديد، وهنا تبين أن كل التاريخ الماضي، باستثناء الحالة البدائية، كان تاريخ الصراعات الطبقية، وأن طبقات المجتمع المتصارعة تلك إنما هي دائماً حصيلة علاقات الإنتاج والتبادل، أي نتاج العلاقات الاقتصادية في

عصرها، وبالتالي إن البنية الاقتصادية للمجتمع تشكل، دائماً، الأساس الفعلي الذي يسمح، في نهاية المطاف بتفسير كامل البنية الفوقية للمؤسسات الحقوقية والسياسية، وكذلك الآراء الدينية والفلسفية وغيرها في كل مرحلة تاريخية. كان هيغل قد حرر تصور التاريخ من الميتافيزيقيا وجعله ديالكتيكياً، لكن تصوره للتاريخ كان في الأساس مثالياً. أما الآن فقد طردت المثالية من آخر معاقلها، من تصور التاريخ، وحل التصور المادي للتاريخ محلها ووجد السبيل لتفسير وعي البشر انطلاقاً من وجودهم بدل تفسير وجودهم انطلاقاً من وعيهم كما كان يحصل حتى الآن.

وكان من نتيجة ذلك أن الاشتراكية لم تعد تظهر الآن اكتشافاً بالصدفة لهذا الذهن العبقري أو ذاك، بل نتاجاً ضرورياً لصراع طبقتين نشأتا تاريخياً: البروليتاريا والبورجوازية. كما أن مهمتها لم تعد تتقوم في فبركة نظام للمجتمع متكامل قدر الإمكان، بل تتقوم في دراسة التطور التاريخي الاقتصادي الذي ولد بالضرورة هذه الطبقات وهذا الصراع فيما بينها، وفي اكتشاف الوسائل، في الوضع الاقتصادي الناشىء، من أجل هذا النزاع.

إلّا أن الاشتراكية السابقة كانت متعارضة مع هذا

التصور المادي للتاريخ مثلما كان تصور المادية الفرنسية للطبيعة متعارضاً مع الديالكتيك والعلوم الطبيعية الحديثة. وصحيح أن الاشتراكية السابقة كانت تنتقد نمط الإنتاج الرأسمالي القائم وعواقبه، لكنها لم تستطع أن تفسره ولا أن تتغلب عليه بالتالي، ولم يكن في وسعها سوى رفضه ببساطة كشيء سيِّئ. وكلما كانت تحمل بعنف على استغلال الطبقة العاملة الملازم لذلك النمط الإنتاجي، كانت تبدو قدرتها أضعف على تعيين مكمن ذلك الاستغلال ومصدره بوضوح.

فالمسألة كانت تتطلب، من جهة وضع نمط الإنتاج الرأسمالي هذا في ترابطه التاريخي وضرورته لفترة تاريخية محددة، وضرورة سقوطه بالتالي، ومن جهة أخرى تعرية طابعه الداخلي الذي كان لا يزال خافياً.

وهذا ما حصل باكتشاف فائض القيمة. وتمت البرهنة على أن تملك العمل غير المدفوع، إنما هو الشكل الأساسي لنمط الإنتاج الرأسمالي ولاستغلال العمال الناجم عن ذلك، أن الرأسمالي، حتى عندما يشتري قوة عمل عامله بكامل قيمتها التي لها في السوق كسلعة، فإنما يحصل مع ذلك على قيمة تفوق تلك التي دفعها، وأن

فائض القيمة هذا يشكل، في نهاية التحليل، مجموع القيمة التي تتأتى منها كمية الرأسمال المتنامية باستمرار والمتراكمة في أيدي الطبقات المالكة. وهكذا يكون قد تم تفسير سير الإنتاج الرأسمالي، وكذلك أيضاً إنتاج الرأسمال.

إن هذين الاكتشافين العظيمين: التصور المادي للتاريخ، والكشف عن سر الإنتاج الرأسمالي بواسطة فائض القيمة، ندين بهما لماركس. وبفضلهما أصبحت الاشتراكية علماً ينبغي الآن مواصلة بلورته بكل تفاصيله وترابطاته.

التصور المادي للتاريخ

ـ 3 ـ

ينطلق التصور المادي للتاريخ من الموضوعة القائلة إن الإنتاج، ومن ثم تبادل المنتوجات، يشكلان أساس كل نظام اجتماعي، وإن توزيع المنتوجات، ومعه الانقسام الاجتماعي، إلى طبقات أو فئات يتحددان في كل مجتمع يظهر في التاريخ بما ينتج وكيف يتم إنتاجه. لذلك، ينبغي البحث عن الأسباب الأخيرة للتغيرات الاجتماعية والانقلابات السياسية كافة، لا في عقول الناس وفي فهمهم المتنامي للحقيقة والعدالة الخالدتين، بل في تغيرات نمط الإنتاج والتبادل، يجب البحث عنها، لا في الفلسفة بل في اقتصاد العصر المعني. وإذا ما أخذنا نفهم أن المؤسسات الاجتماعية القائمة غير معقولة وغير عادلة. «وأن العقل قد غدا حماقة والنعمة غدت مصيبة» فإن ذلك

ليس سوى مؤشر على أنه قد طرأت خلسة، تحولات في طرق الإنتاج وأشكال التبادل لم يعد يتلاءم معها النظام الاجتماعي المتكيف مع أوضاع اقتصادية قديمة. هذا يعني، في الوقت نفسه، أن وسائل إزالة ما اكتشف من أوضاع غير سوية، قائمة وجوباً، هي الأخرى ـ بشكل متفاوت التطور ـ في علاقات الإنتاج المتغيرة. وينبغي اذن ألا نخترع هذه الوسائل من الذهن بل أن نكتشفها بواسطة الذهن في وقائع الإنتاج المادية المنوجدة.

فما هو اذن، موقف الاشتراكية الحديثة؟

إن النظام الاجتماعي القائم ـ وهذا أمر مسلم به عموماً ـ هو من صنع الطبقة المسيطرة حالياً، البورجوازية. كما أن نمط الإنتاج الخاص بالبورجوازية، المسمى منذ ماركس نمط الإنتاج الرأسمالي، لم يكن يتلاءم لا مع الامتيازات المحلية والفئوية ولا مع الروابط الشخصية المتبادلة للنظام الاقطاعي. لقد حطمت البورجوازية النظام الاقطاعي وأقامت على أنقاضه دستور المجتمع البورجوازي، امبراطورية المزاحمة والتنقل الحر والمساواة في الحقوق بين مالكي السلع وغيرها من المآثر البورجوازية الباهرة. وبات بإمكان نمط الإنتاج الرأسمالي

أن يزدهر بحرية. وتطورت القوى المنتجة[1] التي نشأت بقيادة البورجوازية بسرعة واتساع لم يسبق لهما مثيل، وذلك منذ أن حول البخار والآلة الجديدة، المانيفاتورة القديمة إلى صناعة كبرى. بيد أنه كما دخلت المانيفاتورة القديمة، والحرف المتطورة في نزاع مع القيود الاقطاعية الناجمة عن الجمعيات الحرفية، كذلك تدخل الصناعة الكبرى، ما إن يصبح تطورها أكثر اكتمالاً، في نزاع مع الحواجز التي يقيم نمط الإنتاج الرأسمالي في وجهها. وها قد تخطت القوى المنتجة الجديدة شكل استثمارها البورجوازي. فالنزاع بين القوى المنتجة ونمط الإنتاج ليس نزاعاً متولداً في رؤوس الناس كالنزاع القائم بين الخطيئة الأولى والعدالة الالهية مثلاً، وإنما هو نزاع قائم في الواقع موضوعياً وخارجاً عنها ومستقلاً حتى عن إرادة وسلوك أولئك الناس الذين أثاروه. والاشتراكية الحديثة ليست سوى انعكاس هذا النزاع الفعلي في الفكر، وانعكاسه بشكل أفكار، وبالدرجة الأولى في رؤوس أبناء الطبقة التي تعاني منه مباشرة، الطبقة العاملة.

والآن ممّ يتقوم هذا النزاع؟

---

(1) في النص الألماني ورد خطأ: «تطور علاقات الانتاج» (المترجم).

في القرون الوسطى، قبل الإنتاج الرأسمالي، كان الإنتاج الصغير قائماً في كل مكان، وأساسه ملكية العاملين الخاصة لوسائل إنتاجهم: زراعة للفلاحين الصغار، الأحرار أو الأقنان، وحرف للمدن. وكانت وسائل العمل ـ الأرض، الأدوات الزراعية، المشغل، الأدوات الحرفية ـ معدة فقط للاستعمال الفردي، كانت إذن، بالضرورة، متواضعة، صغيرة، محدودة. لكنها، ولهذا السبب بالذات، كانت تخص، عادة، المنتج نفسه. أما مركزة وسائل الإنتاج المبعثرة والمتواضعة هذه، وتوسيعها، وتحويلها إلى رافعات جبارة للإنتاج الحديث، فقد كان، بالضبط، الدور التاريخي لنمط الإنتاج الرأسمالي وللطبقة البورجوازية، حاملة لوائه. أما كيف قامت البورجوازية بذلك العمل، تاريخياً منذ القرن الخامس عشر، بمراحله الثلاث: التعاون البسيط، والمانيفاتورة، والصناعة الكبرى، فذلك ما وصفه ماركس بالتفصيل في الباب الرابع من «رأس المال». غير أن البورجوازية ـ كما أثبت ماركس ذلك في الموضع نفسه ـ لم تتمكن من تحويل وسائل الإنتاج المحدودة تلك إلى قوى منتجة جبارة، دون تحويلها من وسائل إنتاج فردية إلى وسائل إنتاج اجتماعية لا تستعمل إلا من قبل مجموعة

من الناس. فمحل دولاب الغزل والنول اليدوي ومطرقة الحداد، حلت آلة الغزل والنول الميكانيكي والمطرقة البخارية، ومكان المشغل الفردي، حل المعمل الذي يتطلب تعاون مئات وألوف الناس. وكما تحولت وسائل الإنتاج، كذلك تحول الإنتاج نفسه من سلسلة أعمال فردية إلى سلسلة أعمال اجتماعية، وتحولت المنتجات من فردية إلى اجتماعية: فالخيط والقماش والسلع المعدنية التي باتت تخرج الآن من المعمل، إنما هي نتاج جماعي لعمال كثيرين، مرت بالضرورة، على أيديهم دورياً قبل أن تغدو جاهزة. وما من فرد بإمكانه أن يقول عنها: **أنا** عملت ذلك، وهذا إنتاجي **أنا**.

لكن هذا التحول الثوري اقتصر على الإنتاج، في حين لم يحدث في طرق التبادل القديمة تغير أساسي. وقد طرأ التحول هذا وفي إطار العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس من تقسيم للعمل يضفي على المنتجات شكل السلع، التي من شأن تبادلها أن يتيح سد الحاجات اليومية للمنتجين الفرديين. وكانت هذه هي الحالة في القرون الوسطى. فالفلاح، مثلاً، كان يبيع الحرفي منتجات حقله ليبتاع بها منتجات الحرفي. نمط الإنتاج الجديد قد تسلل اذن إلى مجتمع المنتجين الفرديين، منتجي السلع. فأدخل

إلى قلب ذلك التقسيم الطبيعي غير الممنهج للعمل، التقسيم السائد في المجتمع بأسره، تقسيم عمل ممنهجاً ومنظماً في كل معمل بمفرده، فظهر، إلى جانب الإنتاج الفردي، الإنتاج الاجتماعي. وكانت منتجات كل من الإنتاجين تباع في السوق ذاتها، إذن، تباع بأسعار متساوية تقريباً. لكن التنظيم الممنهج كان أقوى من تقسيم العمل الطبيعي. إذ إن المعامل المشغلة اجتماعياً كانت تنتج بسعر أرخص من المنتجين الصغار المنفردين. فتهاوى الإنتاج الفردي في مجال إثر مجال. وثوّر الإنتاج الاجتماعي نمط الإنتاج القديم برمته. غير أن هذا الطابع الثوري، الخاص بالإنتاج الاجتماعي، كان خافياً لدرجة أنه اعتمد [ليس للتثوير بل] على العكس، كوسيلة لرفع مستوى الإنتاج البضاعي وتشجيعه، وكان نشوؤه مرتبطاً ارتباطاً مباشراً ببعض دعائم الإنتاج البضاعي وتبادل السلع، دعائم كانت قائمة قبل نشوئه: كالرأسمال التجاري، والحرفية، والعمل المأجور. وبما أن الإنتاج الاجتماعي ظهر كشكل جديد للإنتاج البضاعي فإن أشكال تملك الإنتاج البضاعي ظلت سارية المفعول بالنسبة إليه أيضاً.

في الإنتاج البضاعي كما عرفته القرون الوسطى، لم

يكن وارداً هذا السؤال: من يجب أن يتملك نتاج العمل؟. فقد كان المنتج الفردي، عادة، يصنع السلعة مباشرة بيديه أو بمساعدة أفراد أسرته من مواد أولية يملكها شخصياً كما يملك وسائل إنتاجها. لذلك لم يكن يحتاج إلى التفكير إطلاقاً بتملك نتاج العمل ما دام كل شيء في عملية الإنتاج هو ملكه أصلاً. فملكية المنتجات إذن كانت تعتمد العمل الشخصي في إنتاجها. حتى حين كان يستعين المنتج بغيره في عملية الإنتاج، لم تكن مسألة ملكية إنتاج العمل إلا مسألة جانبية. فقد كان المساعد ينال في العادة ـ إضافة إلى الأجر ـ مكافأة تعويضية: كان المتدرب أو الصانع لا يعملان من أجل الغذاء والأجر بقدر ما كانا يعملان لإعداد نفسيهما معلمي مهنة. لكن، على الرغم من أن وسائل الإنتاج والمنتجات، في المشاغل الكبرى والمانيفاتورات، أصبحت الآن ذات صفة اجتماعية بالفعل، لا يزال التعامل معها يجري ـ رغم ذلك ـ كما لو أنها لا تزال وسائل إنتاج ومنتجات ذات صفة فردية. بمعنى أن ملكيتها لا تزال فردية. لقد كان مفهوماً أن يستولي مالك وسائل الإنتاج، في ذلك الحين، على المنتج، لأنه نتاج عمله أساساً، وبمساعدة الغير كتكملة لعمله أحياناً. في حين أن مالك وسائل الإنتاج، في

الوقت الحاضر، يتابع تملك المنتج رغم كونه لم يبق نتاج عمله، بل أصبح نتاج الغير حصراً. ذلك يعني أن المنتجات المصنوعة اجتماعياً الآن لا يملكها الذين يحركون وسائل إنتاجها ويصنعونها، بل يملكها الرأسمالي. إذن، لقد أضحت وسائل الإنتاج والمنتجات نفسها اجتماعية أساساً، مع إخضاعها لشكل من التملك يفترض كونها فردية على نحو ما كانت عليه سابقاً حين كان كل واحد يمتلك ويسوّق منتوجه الخاص. وقد خضع نمط الإنتاج لهذا الشكل من التملك رغم أنه يلغي شرطه الأولي[2]، وفي هذا التناقض الذي يضفي على نمط الإنتاج الجديد طابعه الرأسمالي تكمن بذور جميع

(2) لا مجال للنقاش أن فيما لو بقي شكل التملك على حاله، فإن طابع التملك لن يكون أقل تأثراً من الانتاج بالتغيرات الثورية، بفعل العملية المشروحة أعلاه. أن أتملك منتوجي الخاص، وأن أتملك منتوج الغير، فهذا يشكل نوعين مختلفين جداً من التملك. أضف الى ذلك أن العمل المأجور الذي يترعرع فيه نمط الانتاج الرأسمالي برمته قديم جداً. فقد تعايش بشكل مشتت مع نظام الرق، طوال قرون، لكن لم يكن له أن يتطور ليصبح نمط إنتاج رأسمالي إلا حيث توافرت له الظروف التاريخية اللازمة. (الملاحظة لإنجلز).

التناحرات الحالية. فبقدر ما كان نمط الإنتاج الجديد يسيطر على مختلف قطاعات الإنتاج الحاسمة ومختلف البلدان السائدة اقتصادياً، وبقدر ما كان يزيح الإنتاج الفردي إلى حد جعل دوره تافهاً جداً، بقدر ذلك كان **يحتدم التناقض أكثر فأكثر بين اجتماعية الإنتاج والتملك الرأسمالي.**

لقد وجد الرأسماليون الأوائل، كما سبق ورأينا، شكل العمل المأجور قائماً. ولكن العمل المأجور لم يكن سوى شغل استثنائي، ثانوي، إضافي، انتقالي. فالفلاح، الذي كان يشتغل من حين إلى آخر بالمياومة، كان يملك قطعة أرضه التي تكفيه قوتاً، في أسوأ الحالات. وكانت الحرف منظمة بصورة تسمح أن يصبح صانع اليوم معلم الغد. ولكن، ما إن غدت وسائل الإنتاج اجتماعية، وما إن تمركزت في أيدي الرأسماليين، حتى تغير كل ذلك. فإن وسائل إنتاج المنتج الصغير الفردي ومنتجاته أخذت تفقد قيمتها أكثر فأكثر، ولم يبق له من مفر سوى أن يعمل أجيراً في خدمة الرأسمالي. وأمسى العمل المأجور، الذي كان فيما مضى استثناءً وإضافياً، قاعدة كل الإنتاج وشكله الأساسي: كان انشغالاً ثانوياً فيما مضى، أما اليوم فقد استأثر بكل وقت عمل الشغيل. والأجير الموقت غدا

أجيراً مدى الحياة. ناهيك عن أن جمهور العمال الأجراء مدى الحياة قد ازداد زيادة خارقة من جراء تطورات حدثت في آن واحد هي انهيار النظام الاقطاعي، وانحلال حاشية الأسياد الاقطاعيين، وطرد الفلاحين من مزارعهم، الخ. . وتمت القطيعة بين وسائل الإنتاج المتمركزة في أيدي الرأسماليين من جهة، وبين المنتجين الذين لم يبق لهم ما يملكونه سوى قوة عملهم، من جهة أخرى. **وهكذا ظهر التناقض بين الإنتاج الاجتماعي والتملك الرأسمالي بوصفه تناحراً بين البروليتاريا والبورجوازية.**

لقد رأينا أن نمط الإنتاج الرأسمالي قد تسلل إلى قلب مجتمع مؤلف من منتجي السلع، من منتجين فرديين، كانت رابطتهم الاجتماعية تقوم على تبادل منتجاتهم. بيد أن كل مجتمع يقوم على إنتاج السلع يتصف بكون المنتجين فيه يفقدون سيطرتهم على علاقاتهم الاجتماعية المتبادلة. فكل فرد ينتج لنفسه، بوسائل الإنتاج العرضية التي يستطيع الحصول عليها، ولأجل حاجته الفردية إلى التبادل. وما من أحد يعرف أي كمية من المنتوج الذي ينتجه ستظهر في السوق، وما من أحد يعرف ما إذا كانت ثمة حاجة فعلية إلى المنتوج الذي ينتجه وما إذا كان

سيستعيد نفقات إنتاجه، وما إذا كان سيبيعه على وجه العموم. فالفوضى تسود الإنتاج الاجتماعي. ولكن الإنتاج البضاعي، ككل شكل آخر من أشكال الإنتاج، له قوانينه الخاصة الملازمة له، وهذه القوانين تفرض نفسها رغم الفوضى وبواسطة الفوضى. وتظهر في الشكل الوحيد الباقي للرابطة الاجتماعية، أي في التبادل ـ وتقف في وجه المنتجين الفرديين كقوانين للمزاحمة قسرية. والمنتجون أنفسهم يجهلون هذه القوانين في البدء، ويحتاجون إلى تجربة طويلة لاكتشافها الواحد بعد الآخر. فهي تفرض نفسها، إذن، دون معرفة المنتجين وضدهم، كقوانين طبيعية لشكل إنتاجهم قوانين ذات فعل أعمى. فالمنتوج يسيطر على المنتجين.

في مجتمع القرون الوسطى ولا سيما في القرون الأولى كان الإنتاج موجهاً أساساً نحو الاستهلاك الشخصي، وكان لا يلبي على الأغلب إلا حاجات المنتج الشخصية وحاجات عائلته. وحيث كانت ثمة علاقات تبعية شخصية، كما في الريف مثلاً، كان الإنتاج يسد أيضاً حاجات الاقطاعي ولذا لم يكن ثمة تبادل ولم تكن المنتجات ترتدي طابع السلعة. كانت عائلة الفلاح تنتج

تقريباً كل ما تحتاج إليه، سواء من الأدوات أم الألبسة أم الأغذية. ولم تبدأ تنتج من أجل البيع إلا حينما توصلت إلى إنتاج فائض عن استهلاكها وعن الفرائض العينية المترتبة عليها للاقطاعي. وهذا الفائض المعروض للتبادل الاجتماعي، المعد للبيع، غدا سلعة. وصحيح أن الحرفيين في المدن قد اضطروا منذ البدء إلى الإنتاج بقصد التبادل، ولكنهم هم أيضاً كانوا يسدون القسم الأكبر من حاجات استهلاكهم بعملهم الشخصي: فقد كانت لديهم حدائق وحقول صغيرة، وكانوا يرسلون ماشيتهم ترعى في الغاب المشاعي حيث كانوا أيضاً يحتطبون للتدفئة والبناء، وكانت النساء يغزلن الكتان والصوف الخ.. وهكذا فإن الإنتاج بقصد التبادل، الإنتاج البضاعي، كان ما يزال في المهد. ولذا كان التبادل محدوداً، والسوق ضيقة، وأسلوب الإنتاج مستقراً، وكانت العزلة المحلية عن العالم الخارجي، وكان الاتحاد داخل النطاق المحلي، فكان المارك[3] في الريف وكانت الحرف في المدن.

---

(3) المارك: Mark راجع هامش 7 ص 20.

ومع توسع الإنتاج البضاعي ولا سيما مع ظهور نمط الإنتاج الرأسمالي، شرعت قوانين الإنتاج البضاعي، التي كانت راقدة قبل ذلك، تفعل فعلها بمزيد من السفور والقوة. فتراخت الروابط القديمة، وتحطمت حواجز العزلة السابقة، وأخذ المنتجون يتحولون أكثر فأكثر إلى منتجي سلع منفردين ومستقلين. وتكشفت فوضى الإنتاج الاجتماعي وراحت تتفاقم أكثر فأكثر.

ولكن الأداة الرئيسية التي بواسطتها نمى الإنتاج الرأسمالي هذه الفوضى في الإنتاج الاجتماعي، إنما كانت بالضبط نقيض الفوضى: كانت تنظيم الإنتاج الذي غدا اجتماعياً، منظماً تنظيماً متنامياً في كل مؤسسة إنتاجية بمفردها. وبواسطة هذا التنظيم وضع نمط الإنتاج الرأسمالي حداً لركود الاستقرار السابق. ففي كل فرع صناعي دخله، طرد منه طرق الإنتاج السالفة. وحيثما استولى على حرفة أباد الحرفة القديمة. وغدا ميدان العمل ميدان معركة. وجاءت الاكتشافات الجغرافية الكبيرة والمشاريع الاستعمارية التي أعقبتها تضاعف مجال التصريف أضعافاً عديدة وتسرع تحول الحرفية إلى مانيفاتورة. ولم يحتدم الصراع بين منتجي المحلة الفرديين

أنفسهم وحسب، بل إن الصراعات المحلية نمت أيضاً وتحولت إلى صراعات قومية، فكانت الحروب التجارية في القرنين السابع عشر والثامن عشر[4]. وفي آخر المطاف، أضفت الصناعة الكبرى ونشوء السوق العالمية طابعاً كونياً على هذه الصراعات، ودمغاها بعنف لم يسمع بمثله من قبل. وأصبح امتلاك الشروط الملائمة للإنتاج، طبيعية كانت أم اصطناعية، هو الذي يبت في مسألة وجود رأسماليين منفردين، كما يبت في مسألة وجود فروع إنتاجية وبلدان برمتها. فيزاح المغلوب ويبعد بلا رحمة. وذلك هو الصراع الداروني من أجل البقاء، وقد نقل من الطبيعة إلى المجتمع بحدة عارمة. وبدت ظروف الحيوان في الطبيعة ذروة التطور البشري. واتخذ التناقض بين

(4) إشارة إلى سلسلة الحروب التي نشبت بين أقوى دول أوروبا للسيطرة على التجارة مع الهند وأميركا ولغزو الأسواق المستعمرة. كان النزاع الرئيسي في الأصل بين انكلترا وهولندا (الحروب التجارية النموذجية 1652 ـ 1654، 1664 ـ 1667، 1672 ـ 1674) وفيما بعد بين انكلترا وفرنسا. وقد خرجت بريطانيا منتصرة من كل تلك الحروب، اذ ركزت بين يديها، في أواخر القرن الثامن عشر كل التجارة العالمية تقريباً (الناشر).

الإنتاج الاجتماعي والتملك الرأسمالي شكل تضاد بين تنظيم الإنتاج في كل مصنع على حدة وفوضى الإنتاج في المجتمع بأسره.

فضمن هذين الشكلين من التناقض الملازم لنمط الإنتاج الرأسمالي بحكم منشئه، يتحرك نمط الإنتاج هذا، دون أن يخرج منه، ويرسم هذه «الحلقة المفرغة» التي اكتشفها فيه فورييه. ولكن فورييه لم يكن ليستطيع، بالطبع، أن يرى في زمنه أن هذه الحلقة تتقلص بصورة تدريجية، وأن حركة الإنتاج ترسم بالأحرى شأنها شأن حركة الكواكب خطاً حلزونياً ينتهي عند اصطدامه بالمركز. إن القوة المحركة الكامنة في فوضى الإنتاج الاجتماعية هي التي تحول إمكانية إدخال تحسينات لامتناهية على الآلات المستعملة في الصناعة الكبرى إلى قانون إلزامي يفرض على كل رأسمالي صناعي، تحت طائلة الخراب، أن يحسِّن ويتقن آلاته بلا انقطاع. ولكن إتقان الآلات يجعل كمية معينة من العمل الإنساني أمراً نافلاً. وإذا كان ادخال وكثرة الآلات قد أديا إلى الاستعاضة عن الملايين من الشغيلة اليدويين بعدد قليل من الشغيلة على الآلات، فإن إتقان الآلات يؤدي إلى إزاحة عدد متزايد أبداً من الشغيلة على الآلة، ويؤدي، في نهاية الأمر، إلى إيجاد عدد

متزايد من الأيدي العاملة رهن التصرف، يفيض عن متوسط حاجة الرأسمال اليه، ويكوِّن جمهور العاطلين جيشاً صناعياً احتياطياً كاملاً، كما سميته في 1845[5] جيشاً يكون في تصرف الإنتاج في الفترة التي يشتغل فيها بملء طاقته ويرمي به إلى الشارع في الانفجار الحتمي اللاحق، جيشاً يشكل، في كل زمن، قيداً للطبقة العاملة أثناء نضالها من أجل البقاء ضد الرأسمال، وضابطاً للأجر يبقيه في المستوى المنخفض الموافق لحاجة الرأسمال. وينجم بالتالي، حسب قول ماركس، أن الألتية تصبح سلاح الرأسمال الأمضى في وجه الطبقة العاملة، وأن وسيلة العمل تنتزع على الدوام من العامل وسائل معيشته، وأن نتاج العامل يمسي أداة لاستعباده. وينجم أيضاً أن التوفير في وسائل العمل يتصف منذ البداية بأشد ما يكون من تبديد لقوة العمل وبأوقح ما يكون من التقتير على شروط العمل العادية الطبيعية؛ وأن الألتية، هذه الوسيلة الأقوى لاختصار وقت العمل، تصبح آمن وسيلة لتحويل كل حياة العامل وكل حياة عائلته إلى وقت عمل رهن الطلب من أجل زيادة قيمة الرأسمال. ولذلك يؤدي العمل

---

(5) «وضع الطبقة العاملة في إنكلترا». (إنجلز).

الإضافي الذي ينهك بعض الطبقة العاملة إلى بطالة بعضها الآخر، كما أن الصناعة الكبيرة، التي تجوب الكرة الأرضية بحثاً عن مستهلكين جدد، تقصر استهلاك الجماهير في بلادها على حد أدنى من المجاعة، وتحطم بالتالي بيديها سوقها الداخلية. «إن القانون الذي يوازن دائماً بين فائض السكان النسبي أو الجيش الصناعي الاحتياطي وبين تقدم تراكم الرأسمال، يسمر العامل على لوحة الرأسمال بصورة أشد وأمتن مما سمر بها هيفايستوس بروميثوس بمطرقته على الصخرة[6]. ويقيم هذا القانون ترابطاً قدرياً بين تراكم البؤس وتراكم الرأسمال. بحيث أن تراكم الثروة في قطب يعادل تراكم الفقر والألم والجهل والهبل والعبودية والانحطاط المعنوي في القطب المضاد أي عند الطبقة التي تنتج الرأسمال بالذات» (ماركس. رأس المال. الكتاب الأول. الفصل 25). ولئن تطلب من نمط الإنتاج الرأسمالي توزيعاً آخر للمنتجات، كأنك تطلب من قطبي بطارية كهربائية ألا

---

(6) هيفايستوس، كما تقول الأسطورة اليونانية، هو الذي نفذ قضاء أبيه زفنس بالإله بروميثوس، بأن سمره على صخور جبل في شمال أوروبا، عقاباً له على سرقته النار من الأولمب وإهدائها للبشر.

يفسخا الماء، وألّا يرسلا الأوكسيجين إلى القطب الإيجابي والهيدروجين إلى القطب السلبي، ما دام القطبان موصولين بالبطارية.

لقد رأينا كيف أن قابلية الالتية الحديثة للتحسين المستمر تتحول، إذا ما دفعت إلى مداها الأقصى بفعل فوضى الإنتاج الاجتماعي، إلى قانون يرغم الرأسمالي الصناعي على تحسين آلاته باستمرار وعلى رفع قدرتها الإنتاجية باطراد. إنه بفعل هذا القانون الملزم تتحول الآن الإمكانية المتوافرة لدى الرأسمالي، لتوسيع مجال إنتاجه، إلى قانون آخر لا يقل إلزاماً. وذلك أن قوة التوسع والانتشار الهائلة في الصناعة الكبرى، التي تبدو بجانبها قوة توسع الغاز وانتشاره كلعبة أطفال، تظهر لنا الآن بشكل حاجة إلى التوسع والانتشار، كمياً وكيفياً، تتحدى كل ضغط مضاد. وهذا الضغط المضاد هو: الاستهلاك وسوق التصريف وسوق منتجات الصناعة الكبرى. غير أن امكانية التوسع الكمي والنوعي في الأسواق تخضع لقوانين مختلفة جداً عن قوانين التوسع في الإنتاج وأقل فعالية منها بكثير. فإن توسع الأسواق لا يمكن أن يجاري توسع الإنتاج. لذا كان التصادم حتمياً لا مفر منه. وبما أنه لا حل لهذا التصادم إلا بإزالة علاقات الإنتاج الرأسمالية،

فإن التصادم سيصبح دورياً ما دام نمط الإنتاج الرأسمالي سائداً. وتلك «حلقة مفرغة» جديدة يدور ضمنها الإنتاج الرأسمالي.

والواقع أنه منذ 1825، إذ انفجرت أول أزمة عامة أخذ الاحتلال يعاود، كل عشر سنوات، مجمل حركة الصناعة والتجارة، حركة الإنتاج والتبادل، لدى الشعوب المتمدنة والشعوب المتوحشة التابعة لها وشبه المتوحشة، فيحدث فيها الشلل تقريباً، وتتوقف التجارة، وتتكدس المنتجات في الأسواق بحيث يستحيل نفادها،وتختفي النقود من التداول، وتتجمد التسليفات التجارية، وتتعطل المعامل، وتفتقر الجماهير العاملة إلى المواد المعيشية الأساسية لأنها أنتجت الكثير الكثير منها، وتتلاحق الإفلاسات ويتوالى البيع الاضطراري؛ ويستمر الكساد سنوات وتتبدد القوى المنتجة والمنتجات وتتلف بالجملة، إلى أن يفرج أخيراً عن السلع المكدسة بخفض إنمائها بنسب مختلفة، كبيرة أو صغيرة، حتى يستعيد الإنتاج والتبادل سيرهما الطبيعي تدريجياً. وشيئاً فشيئاً تتسارع حركة الصناعة خبباً ثم عدواً. والعدو بدوره تزداد وتائر سرعته ليصبح ضرباً من فوضى السباق في قفز الحواجز على صعيد التجارة والصناعة والقروض والمضاربات،

حتى يقع من جديد في هوة الأزمة بعد أن يكون قد عانى أخطر القفزات. هذا ما نشهده للمرة الخامسة على الأقل منذ 1825، ونشهده في هذه اللحظة (1877) للمرة السادسة. لقد تميز طابع تلك الأزمات بوضوح إلى حد أن فورييه لامسها كلها بيده حتى سمى الأزمة الأولى منها بأزمة الوفرة.

عند اشتداد الأزمة ينفجر التناقض بعنف بين الإنتاج الاجتماعي وشكل التملك الرأسمالي، فيتوقف تداول السلع مؤقتاً، وتصبح العملة التي هي وسيلة التداول عقبة تعوق سيره، وتنقلب رأساً على عقب جميع قوانين الإنتاج والتداول، ويبلغ التصادم الاقتصادي ذروته: يتمرد نمط الإنتاج على نمط التبادل. وتتمرد القوى المنتجة على نمط الإنتاج، لأنه أصبح أضيق من أن يتسع لتطورها المتصاعد.

لقد رأينا كيف تطور التنظيم الاجتماعي للإنتاج داخل المعمل إلى حد أنه أصبح لا يتلاءم مع فوضى الإنتاج القائمة خارج هذا التنظيم والمسيطرة عليه. إن هذه الواقعة أصبحت ملموسة لدى الرأسماليين أنفسهم بفعل تمركز الرساميل الهائل خلال كل أزمة عن طريق خراب الكثيرين من الرأسماليين الكبار وخراب عدد أكبر من الرأسماليين

الصغار. وتتعطل مجمل أوالية نمط الإنتاج الرأسمالي تحت ضغط القوى المنتجة التي ولدها هذا النمط نفسه. لقد ولدها بقدر كبير إلى حد أنه أصبح عاجزاً عن تحويلها كلها إلى رأسمال، أي إلى وسيلة استثمار لقوة عمل الإنسان. ولهذا الأمر ذاته تتعطل القوى المنتجة، وبالضرورة يتعطل الجيش الاحتياطي الصناعي أيضاً. وهنا الوضع الكارثي: وسائل إنتاج، وسائل معيشية، عمال رهن طلب الرأسماليين للعمل، وفرة في جميع عناصر الإنتاج والثروة العامة. لكن الوفرة تصبح ـ كما قال فورييه ـ **مصدراً للعوز والبؤس، لأنها هي (أي الوفرة بالذات)** التي تمنع وسائل الإنتاج والمعيشة أن تتحول إلى رأسمال. فإن وسائل الإنتاج، في المجتمع الرأسمالي لكي تؤدي وظيفتها كوسائل إنتاج، عليها أن تتحول أولاً إلى رأسمال، إلى وسائل استغلال لقوة العمل البشري. إن هذه الضرورة، ضرورة أن تتخذ وسائل الإنتاج والمعيشة صفة رأسمال، تنتصب الآن كطيف بين هذه الوسائل وبين العمال. وهذه الضرورة هي وحدها العائق دون الاتصال ثم التعاون بين روافع الإنتاج المادية وروافعه الشخصية، وهي وحدها التي تمنع وسائل الإنتاج من الاشتغال، وتمنع العمال من العمل والعيش.

لا بد إذن من القضاء على نمط الإنتاج الرأسمالي، ليتاح لوسائل الإنتاج أن تعمل دون أن تتخذ صفة رأسمال، وليتيسر للمجتمع إمكان البقاء والعيش.

يتبين إذن من جهة أن نمط الإنتاج الرأسمالي أصبح عاجزاً عن أن يقود بقدرته الذاتية تلك القوى المنتجة التي خلقها هو. ويتبين من جهة ثانية أن القوى المنتجة نفسها هي الآن الدافع الملح الأقوى نحو إزالة هذا التناقض وتخليص نفسها من صفة كونها رأسمالاً، نحو **الاعتراف الفعلي بطابعها كقوى منتجة اجتماعية**.

إن رد فعل القوى المنتجة هذا المتعاظم باستمرار، ضد صفتها كرأسمال، وفي سبيل الاعتراف بطابعها الاجتماعي، هو الذي سيرغم طبقة الرأسماليين نفسها، بقدر ما تسمح طبيعتها الطبقية داخل العلاقة الرأسمالية، على أن تنطلق في التعامل مع القوى المنتجة من الطابع الاجتماعي بالذات لهذه القوى. إن فترة الزخم الإنتاجي الأشد، وفترة الأزمة الإنتاجية الأشد أيضاً، تفرض كلتاهما على السواء ضرورة جمعنَة (إضفاء الطابع الاجتماعي) على مجموعة كتل ضخمة من وسائل الإنتاج. ففترة الزخم تفرض ذلك حين يتضخم التسليف إلى حده الأقصى، وفترة الأزمة تفرضه حينما تنهار مؤسسات

رأسمالية كبرى، وتتمثل كلا الحالتين بمختلف أنواع الشركات المساهمة. ذلك أن كثيراً من وسائل الإنتاج ووسائط المواصلات، كالسكك الحديدية مثلاً، تكون في بداية أمرها من السعة والضخامة بحيث يعجز عن استيعابها أي شكل آخر من أشكال الاستثمار الرأسمالي. لكن، حتى هذا الشكل الجديد نفسه يصبح غير كاف، عند درجة معينة من التطور، فيتوحد كبار منتجي فرع صناعي واحد داخل البلد في «تروست»، في شركة احتكارية، هدفها تنظيم الإنتاج، وتحديد مجمل الكمية المنوي إنتاجها وتوزيعها فيما بين الأعضاء، وفرض السعر المحدد سلفاً. وهنا أيضاً حين يصل التطور إلى درجة يعجز عندها حتى هذا الشكل الاحتكاري عن الوفاء بضرورات التطور، يحتاج الأمر من جديد إلى جمعنة أشد تركيزاً من السابق، فيتحول كل الفرع الصناعي إلى شركة مساهمة كبرى واحدة، ويحل الاحتكار الداخلي لهذه الشركة الموحدة محل المزاحمة داخل البلد. وهذا ما حصل عام 1890 في مجال الإنتاج الإنكليزي للقِلى[7] الذي أضحى الآن، بعد اندماج كل الـ 48 معملاً كبيراً، في أيدي شركة واحدة ذات إدارة موحدة برأسمال قدره 120 مليون مارك.

---

(7) القلى: مادة تتخذ من حريق نبا الحمض.

بقيام التروستات تتحول المزاحمة الحرة إلى احتكار ويستسلم الإنتاج غير المخطط في المجتمع الرأسمالي أمام الإنتاج المخطط في المجتمع الاشتراكي المقبل. وصحيح أن يتحقق بادىء الأمر لما فيه خير الرأسماليين وحدهم، ولكن الاستغلال يصبح ملموساً إلى حد لا بد له معه أن ينهار، لأنه ما من شعب يمكن أن يتحمل إنتاجاً تديره التروستات، أي استغلالاً للمجموع يبرز تكالب عصابة قليلة من صرافي الكوبونات[8].

لذا ينبغي[9]، عندئذ، بهذا الشكل أو ذاك، مع

---

(8) الكوبون: ما يقطع من السند المالي (الناشر).

(9) أقول: ينبغي، لأنه فقط حين تكون وسائل الإنتاج والمواصلات كبيرة فعلاً الى حد تتعذر معه إدارتها من قبل الشركات المساهمة وحين يصبح التأميم[*] اذن ضرورة اقتصادية، عندها فقط يعني ـ التأميم ـ تقدماً اقتصادياً حتى وإن تم ذلك على يد الدولة الحالية، ويعني بلوغ مرحلة جديدة تسبق تسلم المجتمع نفسه لكل القوى المنتجة. بيد أننا رأينا مؤخراً، منذ أن هب بسمارك[**] إلى التأميم، ظهور نوع من الاشتراكية المزيفة ينحط هنا وهناك، الى نوع من الاستخذاء، وتطلق دون تلكؤ، صفة اشتراكي على كل تأميم حتى وإن كان صاحبه بسمارك. وعلى أية حال لو كان تأميم التبغ اشتراكياً لكان نابليون ومترنيخ[***] من مؤسسي الاشتراكية. وإذا كانت الدولة البلجيكية، لأسباب سياسية ومالية معهودة، قد بنت بنفسها =

التروستات أو دون التروستات، على الممثل الرسمي

= خطوطها الحديدية الرئيسية، وإذا كان بسمارك، دون أية ضرورة اقتصادية، قد أمم خطوط سكك الحديد البروسية الرئيسية لمجرد التمكن من تنظيمها واستخدامها بشكل أفضل في زمن الحرب، ولجعل مستخدمي السكك الحديدية قطيعاً انتخابياً في خدمة الحكومة وللحصول ـ خصوصاً ـ على مصدر جديد للعائدات مستقل عن قرارات البرلمان ـ فإن تلك لم تكن بحال من الأحوال خطوات اشتراكية مباشرة أو غير مباشرة واعية أو غير واعية، وإلا لحسبت مؤسسات اشتراكية: الشركة الملكية للتجارة البحرية، معمل البورسلين الملكي، وحتى خياط الفوج في الجيش، أو أيضاً التأميم الذي اقترحه بكل جدية في حوالى الثلاثينات، أحد كبار الخبثاء، في ظل فريدريك غليوم الثالث، ـ تأميم بيوت الدعارة. (الملاحظة لإنجلز).

(*) والأصح من تأميم، لفظ دولنة، أي تحويل إلى ملكية للدولة. غير إننا نرى لا ضرورة لهذا التمييز بين ملكية الأمة وملكية الدولة على اعتبار أن لفظ التأميم يطلق عند العرب المعاصرين على عمليات التملك من قبل الدولة بصرف النظر عن طبيعتها الطبقية.

(**) أوتوفون بسمارك (1815 ـ 1898). رجل دولة بروسي ـ ألماني أصبح مستشاراً للرايخ الألماني من 1871 الى 1890. مارس سياسة إرهابية ضد نضال الطبقة العاملة في الداخل واتبع سياسة توسعية على حساب الدولة الأخرى. كان من كبار الملاكين العقاريين الألمان. أقام كمستشار علاقات وطيدة مع كبار رجال المال. (الناشر).

للمجتمع الرأسمالي، الدولة، أن يتسلم قيادة الإنتاج. إن ضرورة هذا الأمر تتجلى بالدرجة الأولى في مؤسسات المواصلات الكبرى: البريد والبرق والسكك الحديدية، الخ.

وإذا كانت الأزمات قد كشفت عجز البورجوازية عن متابعة إدارة القوى المنتجة الحديثة، فإن تحول المؤسسات الكبرى للإنتاج والمواصلات إلى شركات مساهمة وتروستات وإلى ملكية الدولة يدل على مدى إمكان الاستغناء عن البورجوازية لتحقيق تلك الغاية. **فكل وظائف الرأسمالي الاجتماعية سيقوم بها الآن موظفون أجراء.** ولم يعد للرأسمالي أي نشاط اجتماعي سوى التهام العوائد وصرف الكوبونات واللعب بالبورصة، حيث

(***) مترنيخ: رجل دولة نمساوي رجعي (1773 ـ 1859)، أصبح عام 1809 وزيراً للخارجية ومن 1821 الى 1848 مستشاراً للدولة. كان عدواً لكل الحركات الليبرالية والوطنية. حاول عن طريق التعاون مع الدول الكبرى (التحالف المقدس) الإبقاء على الوضع الاقطاعي المطلق في أوروبا. ثورة 1848 قضت على نظام مترنيخ هذا وأجبرته على الهرب سراً. (الناشر).

يتدبر الرأسماليون على اختلافهم أمور رأسمالهم فيما بينهم. أما وقد بدا نمط الإنتاج الرأسمالي بإبعاد العمال فإنه يقوم الآن بإبعاد الرأسماليين، فيزج بهم كما فعل بالعمال، في عداد السكان النافلين، إن لم يزج بهم بعد، في جيش الاحتياط الصناعي.

بيد أنه لا التحويل إلى شركات مساهمة وتروتستات ولا إلى ملكية الدولة من شأنه إزالة صفة الرأسمال عن القوى المنتجة. بالنسبة إلى الشركات المساهمة والتروستات هذا أمر بديهي. **والدولة الحديثة ليست بدورها سوى المنظمة التي يختارها المجتمع البورجوازي لنفسه من أجل الإبقاء على الظروف الخارجية العامة لنمط الإنتاج الرأسمالي ضد التجاوزات سواء من جانب العمال أم الرأسماليين المنفردين.** إن الدولة الحديثة، أياً كان شكلها، هي ماكينة رأسمالية أساساً، دون الرأسماليين، الرأسمالي الجمعي الأمثل. **فكلما نقل قوى منتجة إلى ملكيته تعزز كونه رأسمالياً جمعياً بالفعل، واشتد استغلاله للمواطنين.** أما العمال فيبقون عمالاً مأجورين، بروليتاريين والعلاقة الرأسمالية بين المستأجر والأجير لا تلغى، بل بالعكس ترفع إلى ذروتها. لكنها عند بلوغ الذروة تهوي. ذلك

يعني أن ملكية الدولة لقوى الإنتاج لا تحل التناقض وإنما هي تحمل ضمنها، حله الصوري، وسيلة الاقتراب من الحل.

ولا يمكن أن يكون حلاً لهذا التناقض سوى الاعتراف الفعلي بالطابع الاجتماعي للقوى المنتجة الحديثة، **أي بجعل نمط الإنتاج والتملك والتبادل على توافق مع الطابع الاجتماعي للقوى المنتجة الحديثة، أي بجعل نمط الإنتاج** والتملك والتبادل على توافق مع الطابع الاجتماعي للإنتاج. ولا يمكن أن يبلغ المجتمع هذا الهدف إلا إذا استولى صراحة، دون لف ودوران، على ملكية القوى المنتجة التي أصبحت قوية إلى حد أنها لم تعد تتحمل إدارة غير إدارة المجتمع نفسه. وحينذاك سيؤكد المنتجون، بوعي كامل، على الطابع الاجتماعي للإنتاج والمنتجات، وهو الطابع الذي يوجه اليوم حرابه نحو المنتجين أنفسهم، ويهز نمط الإنتاج والتبادل بصورة دورية فارضاً نفسه قانوناً طبيعياً يفعل بصورة عمياء عنيفة ومدمرة. لكن ما إن يعرف ويقيم حتى يتحول من سبب للاضطراب والكوارث الدورية إلى أقوى رافعات الإنتاج بالذات.

إن فعل القوانين الاجتماعية كفعل القوانين الطبيعة،

يبقى فعل تدمير عشوائي أخرق ما دمنا نجهلها ولا نحسب لها حساباً، ومتى عرفناها وأدركنا فعلها واتجاهات نشاطها أمكننا إخضاعها أكثر فأكثر لإرادتنا وتسخيرها لمقاصدنا. وهذا ينطبق، بوجه خاص، على واقع القوى المنتجة الجبارة المعاصرة. فما دمنا نرفض بعناد فهم طابعها وطبيعتها، على غرار ما يقتضيه نمط الإنتاج الرأسمالي والمدافعين عنه، فإن تلك القوانين تعمل ضدنا، بالرغم عنا، وتسيطر علينا، كما أوردنا تفصيل ذلك من قبل. **لكن حين نفهم طبيعتها يصبح بالإمكان أن تتحول بأيدي المنتجين المتعاونين، الذين يستخدمونها بملء وعيهم، من سيدات شيطانيات إلى خادمات وديعات.** هنا يكمن الفارق بين قوة الكهرباء المدمرة في برق الإعصار وبين الكهرباء المروّضة في التلغراف مثلاً، وكذلك الفارق بين النار التي تحدث الحرائق والنار المسخرة لخدمة المجتمع.

إن الاعتراف العملي بالطابع الاجتماعي للقوى المنتجة الحاضرة، يعني إحلال تنظيم الإنتاج المبرمج اجتماعياً، وفقاً لحاجات الفرد والمجتمع، محل فوضى الإنتاج. بذلك يستعاض عن طريقة التملك الرأسمالي ـ التي بها يكون المنتج أولاً ثم المالك مستعبداً للمنتوج ـ بطريقة

تملك المنتوج على أساس الطبيعة الاجتماعية للإنتاج، بمعنى التملك الاجتماعي المباشر، من جهة أولى، كوسيلة لصيانة الإنتاج وتطويره، والتملك الفردي المباشر، من جهة ثانية، كوسيلة للعيش والتمتع.

إن نمط الإنتاج الرأسمالي، بتحويله أكثر فأكثر سواد السكان إلى بروليتاريين، إنما يخلق القوة التي لا بد لها من أن تهلك، أو أن تحقق ذلك التغيير الثوري. وهو ما دام يستلزم تحويل وسائل الإنتاج الكبرى، ذات الطبيعة الاجتماعية، إلى ملكية الدولة، فكأنه يدل بنفسه على الطريق الواجب سلوكه لتحقيق ذلك التغيير الثوري. **فالبروليتاريا تنتزع سلطة الدولة، وتحول وسائل الإنتاج أول الأمر إلى ملكية للدولة.** غير أنها، إذ تفعل ذلك، تلغي نفسها كبروليتاريا، كما تلغي جميع الفوارق والنزاعات الطبقية، وكذلك الدولة كدولة. إن المجتمعات التي قامت والتي لا تزال قائمة على النزاعات الطبقية، كانت محتاجة إلى الدولة، أي إلى مؤسسة للطبقة المستغلة للحفاظ على شروط استغلالها للطبقات الأخرى، ولقمع هذه الطبقات، خصوصاً، واستبقائها خاضعة لشروط

استغلال نمط الإنتاج القائم (العبودية، الاقطاعية، العمل المأجور). وإذا كان ينظر إلى الدولة، فيما مضى على اعتبار أنها الممثلة الرسمية لكل المجتمع، وكتجسيد له في هيئة، في جسم منظور، فإن ذلك لا ينفي أن الدولة كانت دائماً تقوم بدورها ذاك ضمن حدود كونها واقعياً ممثلة الطبقة التي تعتبر نفسها، في زمنها، ممثلة لكل المجتمع. **لكن، مذ تصبح الدولة ممثلة ـ بالفعل ـ لكل المجتمع يصبح وجودها أمراً زائداً عن الحاجة لا فائدة منه.** فما دام لم يبق في المجتمع طبقات خاضعة للاضطهاد الطبقي، وما دامت السيطرة الطبقية قد انتفت وانتفت بذلك دواعي الصراع من أجل البقاء ضمن نطاق فوضى الإنتاج، فإنه قد انتفى اذن وجود من يجب إخضاعه، أي إنه انتفت الحاجة إلى سلطة قمعية، إلى الدولة. **إن أول فعل تظهر به الدولة فعلاً كممثلة لكل المجتمع، وهو تملك وسائل الإنتاج باسم المجتمع، سيكون هو نفسه آخر فعل خاص بها كدولة،** حينذاك يصبح تدخل سلطة الدولة في جملة من العلاقات الاجتماعية أمراً نافلاً في مجال بعد مجال، حتى تحل إدارة الأشياء وقيادة عمليات الإنتاج محل حكم

الأفراد. الدولة لا تلغي، بل تضمحل. هذا ما يفسر خطأ عبارة «الدولة الشعبية الحرة»[10] الجوفاء سواءٌ من حيث تبريرها الزمني كوسيلة تحريض أم من حيث انطواؤها على نقص علمي حاسم. كما يفسر خطأ مطلب من يسمونهم بالفوضويين، وهو المطلب الذي يرى ضرورة إلغاء الدولة بين عشية وضحاها.

إن فكرة سيطرة المجتمع على مجمل وسائل الإنتاج برزت كحلم مستقبلي لدى كثير من الأفراد والشيع منذ ظهور الإنتاج الرأسمالي في التاريخ. لكنه بقي حلماً ضبابياً غامضاً متموجاً، ولم يتبين أنه ممكن وأنه ضرورة تاريخية، إلا حين توافرت الشروط المادية لتحقيقه. فإن زوال الطبقات شأنه شأن أي تقدم اجتماعي آخر، يصبح قابلاً للتطبيق لا بمجرد إدراك الجماهير أن وجود الطبقات

---

(10) «الدولة الشعبية الحرة» كانت في السبعينيات برنامجاً مطلبياً وشعاراً للاشتراكيين الديموقراطيين الألمان (لينين). راجع نقد هذا الشعار في الجزء الرابع من مؤلف ماركس «نقد برنامج غوتا». راجع أيضاً الدولة والثورة للينين، الفصل الأول، القسم الرابع والفصل الرابع، القسم الثالث. (الناشر).

يتعارض مع العدالة أو المساواة أو الأخوة، الخ، ولا بمجرد إرادة من يريد إزالة الطبقات، وإنما يتوافر بعض الشروط الاقتصادية المستجدة. إن انشطار المجتمع إلى طبقتين مستغلة ومستغلة مضطهدة ومضطهدة، كان النتيجة الضرورية لضعف تطور الإنتاج في الماضي، إذ لم يكن العمل الاجتماعي قادراً أن يعطي مردوداً يفيض عما هو ضروري ضرورة مطلقة لبقاء المجتمع، وإذا كان العمل يستوعب تقريباً كل وقت السواد الأعظم من المجتمع المنقسم بالضرورة إلى طبقات، في حين كانت أقلية منه تعفي نفسها من العمل الإنتاجي المباشر، وتكلف نفسها القيام بشؤون المجتمع العامة، إدارة العمل، الشؤون السياسية، القضاء، العلوم، الفنون، الخ... فنظام تقسيم العمل إذن هو في أساس انقسام المجتمع إلى طبقات. لكن ذلك لا يمنع أن يحصل هذا الانقسام بطريق العنف، والسرقة والاحتيال والغش، ولا يمنع أيضاً أن تسعى الطبقة المسيطرة، حين تستقر لها السيطرة، إلى توطيد حكمها على حساب الطبقة العاملة، وتحويل الإدارة، الإدارة الاجتماعية إلى استغلال متزايد للجماهير.

ولكن إذا كان لانقسام المجتمع إلى طبقات بعض المشروعية التاريخية، فليس له ذلك إلا لفترة زمنية محددة، وفي ظروف اجتماعية محددة. لقد قام الانقسام الطبقي على عدم كفاية الإنتاج وسيكسبه تطور القوى المنتجة الحديثة تطوراً كاملاً. إذ يفترض الغاء الطبقات الاجتماعية، بالفعل، مستوى من التطور التاريخي يغدو معه وجود هذه الطبقة المسيطرة بعينها أو تلك، بله وجود طبقة مسيطرة على العموم، وبالتالي التمييز بين الطبقات نفسها، بقية من بقايا الماضي، وظاهرة قد ولى زمانها. يفترض إلغاء الانقسام الطبقي إذن درجة عالية من تطور الإنتاج يصبح معها تملك طبقة اجتماعية معينة لوسائل الإنتاج والمنتجات، واحتكارها للثقافة والقيادة الفكرية، ليس أمراً نافلاً وحسب، بل وأيضاً عائقاً للتطور من الوجهة الاقتصادية والسياسية والفكرية. وقد تم بلوغ هذه الدرجة الآن. وإذا لم يعد إفلاس البورجوازية السياسي والفكري بخاف على البورجوازية فإن إفلاسها الاقتصادي يتكرر بانتظام كل عشر سنوات. وفي كل أزمة يعاني المجتمع الاختناق تحت ضغط قواه المنتجة ومنتجاته

الخاصة به التي لا يستطيع استعمالها، فيقف عاجزاً أمام هذا التناقض الأخرق: ليس للمنتجين ما يستهلكون لأن ثمة نقصاً في المستهلكين.

إن قوة التوسع في وسائل الإنتاج تحطم القيود التي كبلها بها نمط الإنتاج الرأسمالي. وتحريرها من هذه القيود هو الشرط الوحيد المطلوب من أجل تطور القوى المنتجة تطوراً غير منقطع ومتصاعداً بسرعة متزايدة، وبالتالي من أجل تنامي الإنتاج نفسه إلى ما لا حد له عملياً. وليس هذا كل ما في الأمر. فإن التملك الاجتماعي لوسائل الإنتاج يزيل ليس العقبات المصطنعة أمام الإنتاج الراهن فقط، بل وأيضاً تبديد القوى المنتجة والمنتجات وتدميرها الفعليين، تبديداً وتدميراً يلازمان حتماً الإنتاج الحالي ويبلغان الذروة إبان الأزمات. أضف إلى ذلك أن التملك الاجتماعي يحرر كمية كبرى من وسائل الإنتاج والمنتجات لمصلحة المجموع، إذ يقضي على التبذير الأبله الذي يتمثل في فخفخة الطبقات المسيطرة حالياً وممثليها السياسيين. إن إمكانية أن نوفر لجميع أعضاء المجتمع، بفضل الإنتاج الاجتماعي، عيشاً ليس يكفي تماماً من الناحية المادية ويتحسن يوماً بعد يوم

فحسب، بل وأيضاً يؤمن لهم تفتح مؤهلاتهم الجسدية والفكرية تفتحاً حراً وكاملاً وممارستها ممارسة حرة وكاملة ـ إن هذه الإمكانية متوافرة اليوم للمرة الأولى، ومتوافرة فعلاً[11].

مع تملك المجتمع لوسائل الإنتاج يقضي على الإنتاج

---

(11) بعض الأرقام بإمكانها أن تعطي فكرة تقريبية عن قوة التوسع الهائلة لوسائل الإنتاج الحديثة حتى تحت الضغط الرأسمالي. ووفقاً لحسابات جيفن * Giffen الأخيرة، بلغت ثروة انكلترا وايرلندا الاجمالية بالأرقام:

في عام 1814 ـ 2200 مليون جنيه استرليني = 44 مليار مارك
في عام 1865 ـ 1600 مليون جنيه استرليني = 122 مليار مارك
في عام 1875 ـ 8500 مليون جنيه استرليني = 170 مليار مارك

أما بالنسبة الى تدمير وسائل الانتاج واتلاف المنتوجات في الأزمات، فقد قدر المؤتمر الثاني للصناعيين الألمان الذي جرى في برلين في 21 شباط 1878، بـ 455 مليون مارك الخسارة الإجمالية التي ألحقت فقط بصناعة الحديد الألمانية خلال الهزة الأخيرة. (الملاحظة لإنجلز).

(*) الأرقام المنشورة هنا حول الحجم الإجمالي لثورة بريطانيا وايرلندا مأخوذة من محاضرة لروبرت جيفن حول تراكم الرأسمال في المملكة المتحدة (التراكمات الأخيرة للرأسمال في المملكة المتحدة)، ألقاها في 15 ك 2 1878، أمام الجمعية الاحصائية، ونشرت في صحيفة الجمعية الاحصائية في آذار 1878. (الناشر).

البضاعي، وبالتالي على سيطرة المنتوج على المنتج. وتخلي الفوضى في داخل الإنتاج مكانها للتنظيم المخطط الواعي. ويتوقف الصراع من أجل البقاء الفردي. وبهذا، لأول مرة، ينفصل الإنسان، بمعنى من المعاني، نهائياً عن مملكة الحيوان، وينتقل من ظروف العيش الحيوانية إلى ظروف إنسانية فعلاً، وتغدو ظروف الحياة المحيطة بالفعل والتي كانت تسيطر عليهم حتى الآن، خاضعة لسيطرة ورقابة الناس الذين يغدون، للمرة الأولى، أسياد الطبيعة بالفعل وعن وعي لأنهم، وبما هم، أسياد انتظامهم المجتمعي. ومذ ذاك سيطبق الناس، على قوانين نشاطهم الاجتماعي التي كانت، حتى الآن، تقف في وجههم كقوانين طبيعية غريبة وقاهرة. وانتظام الناس المجتمعي، الذي كان، حتى الآن ينتصب في وجههم كأنما قررته الطبيعة والتاريخ، يصبح فعلهم الخاص والحر. والقوى الغريبة الموضوعية، التي كانت، حتى الآن، تسيطر على التاريخ، تخضع لرقابة الناس. ومنذ تلك اللحظة فقط سيصنع الناس تاريخهم بأنفسهم بوعي تام، ومنذ تلك اللحظة فقط ستبدأ العوامل الاجتماعية، التي يحركونها هم، تعطي بصورة غالبة ومتعاظمة على الدوام، النتائج التي توخوها. وتلك هي قفزة البشرية من ملكوت الضرورة إلى ملكوت الحرية.

وختاماً نوجز ببعض كلمات سير التطور الذي عرضناه.

1 ـ **مجتمع القرون الوسطى**: إنتاج صغير فردي. وسائل إنتاج معدة للاستعمال الفردي وبالتالي بدائية، صغيرة، محدودة المفعول. إنتاج للاستهلاك المباشر، إما لاستهلاك المنتج، وإما لاستهلاك سيده الاقطاعي. وفقط حيث يتوافر فائض من المنتجات على الاستهلاك المباشر، يعرض هذا الفائض للبيع ويدخل في التبادل؛ الإنتاج البضاعي في خطوته الأولى، ولكنه يتضمن، مذ ذاك، بذرة **فوضى الإنتاج الاجتماعي**.

2 ـ الثورة الرأسمالية: انقلاب في الصناعة، أولاً عن طريق التعاون البسيط والمانيفاتورة. مركزة وسائل الإنتاج في مشاغل كبيرة بعد أن كانت مشتتة، مبعثرة، **أي تحويل وسائل الإنتاج الفردية إلى وسائل اجتماعية ـ تحويل لا يمس شكل التبادل أبداً، وبالتالي بقاء أشكال التملك السابقة. ويظهر الرأسمالي**: إنه مالك وسائل الإنتاج، ولذا فهو الذي يتملك المنتجات ويجعلها سلعاً. ويغدو الإنتاج عملاً اجتماعياً، غير أن تبادل المنتجات، ومعه تملكها، يظلان عملين فرديين أي يقوم بهما الأفراد: **يتملك الرأسمالي الفردي منتوج العمل الاجتماعي**. وهذا تناقض

أساسي، ومصدر جميع التناقضات التي يتحرك المجتمع الحالي في إطارها والتي تتضح بجلاء خاص في الصناعة الكبيرة.

أ ـ انفصال المنتج عن وسائل الإنتاج. الحكم على العالم بالعمل المأجور مدى الحياة. **تضاد بين البروليتاريا والبورجوازية.**

ب ـ ازدياد بروز وفعل القوانين التي تسيطر على الإنتاج البضاعي. **صراع المزاحمة المنفلت من عقاله. تناقض بين التنظيم الاجتماعي في كل معمل بمفرده وبين الفوضى الاجتماعية في مجمل الإنتاج.**

ج ـ من جهة، تحسين الألتية، الذي جعلته المزاحمة قانوناً الزامياً على كل صناعي والذي يعني، في الوقت نفسه، استبعاد العمال من المعامل بصورة متزايدة على الدوام: **نشوء جيش صناعي احتياطي.** ومن جهة أخرى، توسيع الإنتاج إلى ما لا حد له، وقد جعلته المزاحمة قانوناً إلزامياً أيضاً على كل صناعي. ومن الجهتين، تطور القوى المنتجة تطوراً لم يسمع بمثله من قبل، **زيادة العرض على الطلب، فيض في الإنتاج، اغراق الأسواق،** أزمات تتكرر كل عشر سنوات، حلقة مفرغة: **هنا، فائض من وسائل الإنتاج والمنتجات، وهناك، فائض من عمال**

بلا عمل وبلا وسائل للعيش. غير أن هذين الرافعين للإنتاج وللرفاه الاجتماعي لا يمكن لهما أن يجتمعا، لأن شكل الإنتاج الرأسمالي يمنع القوى المنتجة عن العمل، والمنتجات عن التبادل، إلا إذا تحولت أولاً إلى رأسمال ـ الأمر الذي يحول دونه فيض غزارتها بالذات. ويبلغ هذا التناقض حد الهراء: **يتمرد نمط الإنتاج على شكل التبادل. وتقتنع البورجوازية بعجزها عن المضي في إدارة قواها المنتجة الاجتماعية الخاصة بها.**

د ـ الاعتراف جزئياً بطابع القوى المنتجة الاجتماعي، وفرض هذا الاعتراف على الرأسماليين أنفسهم؛ **استملاك المؤسسات الكبرى للإنتاج والمواصلات من قبل شركات مساهمة أولاً، ثم من قبل التروستات، ثم من قبل الدولة.** ويتضح أن البورجوازية غدت طبقة زائدة، إذ إن الموظفين **برواتب يقومون الآن بجميع وظائفها الاجتماعية.**

3 ـ الثورة البروليتارية، حل التناقضات: تستولي البروليتاريا على السلطة الاجتماعية، **وبواسطة هذه السلطة تحول وسائل الإنتاج الاجتماعية المنتزعة من أيدي البورجوازية، إلى ملكية المجتمع بأسره.** وبهذا العمل تحرر وسائل الإنتاج من كل ما كانت تتصف به بوصفها رأسمالاً، وتطلق لطابعها الاجتماعي حرية التطور الكاملة. ومن الآن فصاعداً يصبح من الممكن تنظيم الإنتاج

الاجتماعي وفق برنامج موضوع سلفاً. إن تطور الإنتاج يجعل من استمرار وجود الطبقات الاجتماعية المختلفة ظاهرة ولى زمنها. ومع زوال فوضى الإنتاج الاجتماعي، تتلاشى سلطة الدولة السياسية. وإذ يغدو الناس في آخر الأمر أسياد انتظامهم المجتمعي، يصبحون أسياداً للطبيعة، أسياداً لأنفسهم، أحراراً.

إن القيام بالفعل التحريري للعالم هذا، هو الرسالة التاريخية للبروليتاريا الحديثة. أما تعميق ظروفه التاريخية، **وبالتالي طبيعته نفسها**،ومن ثم دفع الطبقة التي رسالتها أن تفعل، الطبقة المضطهدة اليوم، **الى وعي ظروف فعلها الخاص بها وطبيعته، فتلك هي مهمة الاشتراكية العلمية، التعبير النظري عن الحركة البروليتارية.**

المحتويات

سلسلة دفاتر ماركسية

من أجل وعي حقيقي بالماركسية نحاول في هذه السلسلة أن نقدم عدداً من الكراسات التي تلقي الضوء على أهم المفهومات التي جاء بها ماركس وإنجلز وعديد من الماركسيين، لكي تشكل معرفة تأسيسية يمكن أن يُبنى عليها. وإذا كانت المعرفة هي المدخل لتمثل أي فكر، فإننا نهدف هنا إلى تقديم هذا المدخل الضروري والمهم، لكن في سياق وعي بأن الماركسية هي أكثر من معرفة، لأنها بالأساس منطق تفكير، هو الجدل المادي. والهدف هنا هو اكتساب هذا المنطق.

وكراس، الاشتراكية: الطوباوية والعلم، هو توضيح للتحوّل العميق الذي أضافته الماركسية لمفهوم الاشتراكية الذي كان قد أصبح متداولاً، حيث تأسست علمياً وبالتالي باتت ممكنة التحقق. وإنجلز هنا يشير إلى ترابط ما أضافته الماركسية، أي منهجها الذي هو الجدل المادي، والذي سمح بالرؤية العلمية للواقع ولآليات تغييره، ترابط ذلك بتشكل الطبقة العاملة التي لا تملك ما تخسره. هذان هما الأساسان اللذين جعلا الاشتراكية ليس طوبا بل ممكن، وضرورة. وإنجلز هنا يقيم الربط العميق بين الجدل المادي خصوصاً ونشوء الطبقة العاملة، ويعنقد بأن هذا الربط هو الذي سيفضي إلى تحقيق الاشتراكية.

وهو لذلك ينتقد الفهم الطوباوي للاشتراكية لمصلحة فهم علمي. وبالتالي يضع الفاصل بين الاشتراكية التي كانت رائجة قبل إذ (واستمرت أيضاً) وبين الاشتراكية التي تؤسس الماركسية لتحقيقها.


ISBN 978-9953-71-596-4